مهذَّب
التَّفسير السِّياسيِّ للإسلام
في فكر المودوديِّ وسيِّد قطب

ألَّف الأصل الشيخ

أبو الحسن عليٌّ الحَسَنيُّ النَّدَويُّ

(١٣٣٣ - ١٤٢٠ / ١٩١٤- ١٩٩٩)

تهذيب

سعد بن عبد الرَّحمن الحصين

(١٣٥٣ – ١٤٣٦ / ١٩٣٤ – ٢٠١٤)

عفا الله عنهما

مركز دراسات تفسير الإسلام

CENTRE FOR STUDIES IN THE INTERPRETATION OF ISLAM

مهذَّب

التفسير السياسي للإسلام

في فكر المودودي وسيد قطب

رحمهما الله

الطبعة الأولى للمركز:

١٤٤٧هـ / ٢٠٢٦م

CENTRE FOR STUDIES IN THE
INTERPRETATION OF ISLAM
1 Kamloops Crescent, Leicester, LE1 2HX, United Kingdom
www.csiislam.org

مهذَّب
التفسير السياسي للإسلام
في فكر المودودي وسيد قطب رحمهما الله

ألَّف الأصل الشيخ

أبو الحسن عليٌّ الحَسَنيُّ النَّدْوِيُّ

(١٣٣٣ ـ ١٤٢٠ / ١٩١٤ ـ ١٩٩٩)

تهذيب

سعد بن عبد الرحمن الحصين

(١٣٥٣ ـ ١٤٣٦ / ١٩٣٤ ـ ٢٠١٤)

عفا الله عنهما

«هذه الدَّعوى الخاطئة الخطيرة هي من أكبر الدَّوافع لتأليف الأستاذ النَّدْويِّ رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الكتاب: «التفسير السياسي للإسلام»، وأكبر دافع للأستاذ عبد الحق التركمانيِّ لإعادة نشره ـ بعد فَقْدِه ـ، وأكبر دافع لمهذِّبه لتهذيبه وطبعه وتوزيعه، بعد أنْ رأى الثلاثةُ سوءَ عاقبةِ هذا الانحراف الفكريِّ الموصوف بالإسلاميِّ»

سعد الحصيِّن رَحِمَهُ اللَّهُ

محتوى الكتاب

الموضوع	الصفحة
قصة هذا «المهذَّب»	٧
بيان المهذِّب	١٣
المدخل في الموضوع	١٧
(المصطلحات القرآنية الأربعة)	٣٣
صلاحية الأمَّة للتلقِّي ومزية الأمة في الإبانة	٣٧
الصلة بين الكلمات والمعاني	٣٨
المزايا الأساسية للقرآن	٣٩
الأمَّة لم تجتمع على ضلالة في أيِّ قرن	٤٣
شهادة العقل السليم	٤٥
وشهد شاهد من أهلها	٤٦
تصوير قاتم للعالم المسلم	٤٩
ظهور المجدِّدين القائمين بالحق	٥٤
محاولات الإصلاح والتَّجديد مستمرة	٥٥
التفكير المتشائم يُنْتج اليأس	٥٦
الاقتصار على حاكميَّة (الإله) و(الرَّبِّ)	٥٨
التَّصريحات المماثلة لدى سيّد قطب	٦١
مغالاة والرد عليها	٦٦

الموضوع	الصفحة

هل العبودية هي صلة الحاكم والمحكوم فحسب؟ ٦٩
مقتضى الأسماء والصِّفات والأفعال الإلهيَّة ٧٠
العبودية في فقه شيخ الإسلام ابن تيمية ٧٢
الدَّعوة إلى إفراد الله بالعبادة ٧٤
أسوة الأنبياء وطبيعة النُّبوَّة ٧٨
الوثنية الأولى قائمة بين أكثر المتدينين ٨٠
جاهد الأنبياء الوثنية على مدار التَّاريخ البشري ٨١
الألوهيَّة هي السُّلطة والحاكميَّة فأين العبادة؟ ٨٣
الترغيب في الذكر وغيره من العبادات ٨٦
الأثر النفسي للتركيز على الحاكمية والسلطة ٨٧
هل أركان الإسلام مجرَّد وسائل؟ ٨٩
بيان القرآن الصريح وترتيبه الصحيح ٨٩
القدوة فيما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ٩١
تدنِّي مرتبة الوسيلة عن الغاية ٩٢
واجب [الحكم بشريعة الله] في ضوء الشَّريعة ٩٣
إقامة الدِّين مقرونة بالحكمة والفقه الأوَّل ٩٨
كلمة لا بد منها ١٠٠

قصة هذا «المهذَّب»

عندما أصدر العلامة أبو الحسن عليٌّ الحسنيُّ النَّدْويُّ (١٣٣٣ ـ ١٤٢٠ / ١٩١٤ ـ ١٩٩٩) رَحِمَهُ اللَّهُ كتابَه: «التفسير السياسي للإسلام» الذي انتقد فيه فكر المودوديِّ (١٣٢١ ـ ١٣٩٩ / ١٩٠٣ ـ ١٩٧٩)، وسيِّد قطب (١٣٢٤ ـ ١٣٨٦ / ١٩٠٦ ـ ١٩٦٦) تواصَى الحركيُّون في العالم على إعدام كتابه، فرغم أنه طبعه أولًا في الهند سنة: ١٣٩٩/ ١٩٧٩، ثم طبعه ثانيًا في مصر: ١٤٠٠/ ١٩٨٠، ثم ثالثًا في الكويت: ١٤٠١/ ١٩٨١؛ فإن الكتاب لم ينتشر، ولم يشتهر، وبقي في طيِّ الكتمان، واختفى في عالم النسيان، بينما تجد جميع كتب النَّدوي ورسائله مطبوعة طبعات كثيرة فاخرة، معروضة في دكاكين الكُتب في مختلف البلدان.

لقد اطلعت على عنوانه في تعليقة للندوي في حاشية أحد كتبه، وبدأت رحلة البحث عنه سنوات طويلة، إلى أن وقفت على نسخة منه في مكتبة الموسوعة الإسلامية في اسطنبول، وقد سألت خلال تلك المدَّة الطويلة كثيرًا من أهل العلم وطلابه عن الكتاب فلم أجد عند أحدٍ منهم نسخة منه، بل ولا خبرًا عنه، فلم ألقَ أحدًا قد قرأ الكتاب أو سمع عن محتواه وعرف غرضه.

ولما جاءت ثورات «الخراب العربي» شعرتُ بأهمية بذل الجهد والوقت في مكافحة التفسير السياسي للإسلام الذي هو أصل أصول

الفكر الحركي، والجماعات والحركات والتنظيمات الإسلامية السياسية ـ السلمية والإرهابية ـ إنما هي نتاج ذلك التفسير، وعلى ذلك الأصل بنيت مفاهيمها وبواعثها وأعمالها، لهذا عكفت على إخراج كتاب الندوي أولًا، وقرنت به كتاب «التفسير السياسي للدين» للمفكر الكبير وحيد الدين خان (١٣٤٤ ـ ١٤٤٢ / ١٩٢٥ ـ ٢٠٢١)، وقدمت لهما بدراسة مطولة، ونشرتها عام: ١٤٣٥/ ٢٠١٤؛ فكان هذا الكتاب باكورة إصدارات «مركز دراسات تفسير الإسلام» الذي أسَّسته لهذا الغرض.

كان الشيخ سعد بن عبد الرحمن الحصيِّن (١٣٥٣ ـ ١٤٣٦ / ١٩٣٤ ـ ٢٠١٤) كلَّما اتَّصل بي يسألني عمَّا أنا مشغول به من العلم والدعوة، فكنت أخبره أنني منشغل بإعداد كتاب النَّدويِّ للطباعة، وأذكر له نبذة عن موضوعه وأهميته، فكان الشيخ يمنعني من الاسترسال في ذلك، ويقاطعني بنقد تصوف الندويِّ وثنائه على طواغيت غلاة الصوفية، ويحدثني بزيارته له في الهند، وأنه انتقده وناصحه وبيَّن تناقضه بين مدحه ابن تيمية ومدحه لجلال الدين الرُّومي، فكان الشيخ الندوي يطأطئ رأسه ولا يردُّ... وكنتُ ـ وما زلتُ ـ أوافق الشيخ الحصين على انتقاد الندويِّ في صوفياته[1]، لكنِّي أعود إلى الثناء على كتابه؛ فينفعل الشيخ وينهي المكالمة بأدبٍ ولطفٍ. ثم لا يمضي يوم أو يومين حتَّى يتصل بي مرَّةً أخرى، فيعود لسؤاله، وأعود إلى جوابه، فينفعل لذلك أكثر من انفعاله الأول، وينهي المكالمة، إلى أن جاء اليوم الذي قررت فيه أن أبادر إلى الانفعال قبل انفعاله، فبالغتُ في الثناء على الكتاب ثناءً عظيمًا، بنبرة صوتٍ عاليةً، فقال الشيخ: لقد أكثرتَ عليَّ، فابعثْ لي هذا الكتاب حتى أراه!

(١) اقرأ في هذا كتابَ: «الأستاذ أبو الحسن النَّدْويُّ: الوجه الآخر من كتاباته» للعلامة صلاح الدين مقبول أحمد الهندي، وكتابَ: «أخبار جلال الدِّين الرُّوميِّ» لأخينا البحاثة المتفنِّن أبي الفضل محمد بن عبد الله القُنَويِّ، أجزل الله مثوبتهما.

أرسلت للشيخ مصوَّرة الكتاب، وانقطع عنِّي أسبوعًا على خلاف عادته، ثم اتَّصل بي وقال لي ـ دون مقدمات ـ: قلتَ لي: إنَّك أدخلت كتاب الندوي في الحاسوب وتريد طباعته؟ قلت: نعم. قال: شَغِلْتَكْ طويلة، وهذا الكتاب متميِّز، وسأقومُ باختصاره وطباعته، فابعث لي نسختك المدخلة في الحاسوب!

لم تمضِ أشهرٌ حتى كان «مهذب التفسير السياسي للإسلام» مطبوعًا في بيروت، وقد حلَّاه الشيخ سعد الحصين بمقدمة قصيرة بيَّن فيه أهمية الكتاب وغرضه من تهذيبه.

ويسرُّنا اليوم أن نعيد طباعة «المهذَّب» كما وضعه الشيخ سعد الحصين في طبعته الأولى، وهو بمثابة نبذة تعريفيَّة ومدخل جيِّد، ومن أحبَّ أن يتوسَّع في دراسة هذا الموضوع المهمِّ فعليه بكتبنا وأبحاثنا ومقالاتنا الكثيرة في هذا المجال، وبالله تعالى التوفيق.

لقد ترحَّم الشيخ سعد الحصين على الشيخ أبي الحسن النَّدْويِّ ودعا له.

وها أنا ذا أترحَّم عليهما وأدعو لهما بخيرٍ.

وأسأل الله تعالى أن يوفِّق من يقرأ هذا الكتاب إلى أن يترحَّم علينا ـ نحن الثلاثة ـ ويدعو لنا بالقبول والعفو والمغفرة والجنَّة.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

كتبه

عبد الحق بن ملا حقي التركماني

ليستر: ٢٦/ ٤/ ١٤٤٧، الموافق: ١٨/ ١٠/ ٢٠٢٥

مهذَّب
التفسير السياسي للإسلام
في فكر المودودي وسيد قطب رحمهما الله

ألَّف الأصل الشيخ

أبو الحسن عليٌّ الحَسَنيُّ النَّدْويُّ

تهذيب

سعد بن عبد الرحمن الحصين

عفا اللّه عنهما

حفظ حقوق التأليف والطبع قانون أوروبي
والعلوم الشرعية لا يجوز تحجيرها ولا احتكارها
ونشرها ابتغاء وجه الله عبادة صالحة[١]

طبع الأصل عام: ١٣٩٩
طبع المهذَّب عام: ١٤٣٣

(١) كان الشيخ سعد الحصين رحمه الله يحرص على إثبات هذه الكلمة في صدر كلِّ كتابٍ يطبعُه. (المركز)

بيان المهذِّب

«إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، أمَّا بعد»:

فقد سمعت بكتاب الأستاذ أبي الحسن النّدوي رَحِمَهُ اللَّهُ: (**التفسير السياسي للإسلام**) قبل ربع قرن، وربما كان يكفيني هذا الجزء من عنوانه لإثارة اهتمامي به، ولكنَّ معرفتي بالأستاذ الندوي ومَيْله إلى الفكر قلَّلت احتمال بَحْثِي عنه وقراءته وربما تهذيبه، (وبخاصّة) مع مَقْتِي وَرَدِّي فِرْيَة الحزبيّين والحركيّين والفكريّين عامّة، بربطهم الدِّين بالسّياسة الرّخيصة ومرجعها الفكر ووسائل الإعلام، (لا بالسّياسة الشرعيّة ومرجعها: الكتاب والسُّنَّة بفهم الصَّحابة وتابعيهم في القرون الخيِّرة).

ولما كان الله ـ مِن نِعَمِه عَلَيَّ ـ قد جَبَرَ نقصي بتعاوني مع عدد من خيرة السّلفيِّين (ومنهم ـ بالترتيب الهجائي ـ الشيخ عبد الحقّ التّركماني، والشيخ علي الحلبي، والشيخ علي بن سلطان الرّشيد، والشيخ د. عزّام الشويعر، والشيخ د. محمد الفريح، والشيخ طاهر نجم الدّين)، فقد نبَّهني أحدهم: الشيخ عبد الحق التركماني إلى تميّز الأستاذ النّدوي رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الكتاب بالتركيز على تفنيد دعوى المودودي وتلميذه سيد قطب رَحِمَهُمَا اللَّهُ بأنّ أركان الإسلام العمليّة

(الصّلاة والزّكاة والصّوم والحجّ): وسائل لتحقيق الغاية التي بعث الله من أجلها الأنبياء، وهي: تأسيس الحضارة والمدنيّة في الأرض وبناء المدنيّة الإنسانية على أُسُس من الخير والفلاح (في لفظ المودودي)، وأن العبادة ليست وظيفة حياة، وأن العمل الدّنيوي عبادة من عبادات الإسلام (في لفظ سيّد قطب). (انظر: التّفسير السّياسي للإسلام ص١٠٢-١٠٤، ومعركة الإسلام والرأسمالية ص٥٢، دار الشروق ط١٣ عام ١٤١٤)، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾؛ وأن الأستاذ الندوي شارك غيره في تفنيد دعوى المودودي وسيّد قطب أن أصل الألوهية وجوهرها هو السّلطة، وأنَّ حقيقة الرّبّ هي السّلطة العليا (بلفظ المودودي) المصطلحات الأربعة في القرآن، ص٢٣، وتفهيم القرآن، ترجمة أحمد إدريس، ج١ ص٢١٧، وعنهما: التفسير السّياسي للإسلام ص٦٣-٧٤، وأن الحاكميّة أخصّ خصائص الألوهيّة (بلفظ سيّد قطب) معالم في الطريق، ط١٠ دار الشروق ١٤٠٣ ص١٠، وفي ظلال القرآن، دار الشروق ص١٨٥٢ قال: (أخصّ خصائص الألوهيّة هي الرّبوبية والقوامة والسّلطان والحاكميّة) تجاوز الله عنهم جميعًا.

وكان الشيخ عبد الحقّ التّركماني يرغب في نشر النّسخة الأصليّة للكتاب باللغة العربيّة، ولكنّي اخترت تهذيبها ونشر المهذَّب للتخلُّص من دفاع أبي الحسن النّدوي عن التّصوف والمتصوّفة الذين اتهمهم المودودي وسيّد قطب بالبطالة، ولا خير في التّصوّف ولا في المتصوّفة سواء عملوا أو تركوا العمل؛ فلا ذكر للتصوُّف ولا للمتصوِّفة في الكتاب ولا في السُّنَّة ولا في فقه الصّحابة ولا التّابعين ولا تابعيهم في القرون الخيِّرة، ثم أنكَر العلماءُ التَّصوُّفَ وشرُّه فكر الحلاج وابن عربي وابن الفارض وأمثالهم لما

فيه من مشاقّة للكتاب والسُّنّة ومخالفة لسبيل المؤمنين، ولكن لُبِّس على أبي الحسن وأمثاله أنّ التصوّف هو الإحسان أو التّزكية، وهما يقومان على شرع الله في كتابه وفي سنّة رسوله ﷺ، أمّا التصوّف فقام (وقعد) على تعاليم الصّوفيّة الهندوسيّة بالاسم والرّسم، من المسبحة وهزّ الرّأس عند الذّكر المبتدع إلى: وثنيّة المقامات والأضرحة، وفِرْيَة وحدة (أو أحديّة) الوجود أو الحلول أو الاتحاد.

ولكن المودودي وسيّد قطب ركَّزا على البطالة وأهملا الكُفْر والكبيرة.

جزى الله الأستاذ الندوي خير جزائه لدفاعه عن دين الله ما افتراه الفكر، وجزى الله الشيخ التركماني خير جزائه على تنبيهي إلى هذا الأمر.

ولأني ذكرتُ في هذا البيانِ عددًا ممن شرَّفني الله بمعرفتهم والتّعاون معهم فإنه يسرُّني ختام هذه الأسطر بذكر خير من عرفت في مصر علمًا وتعليمًا وتأليفًا، والتزامًا بمنهاج النّبوّة في الدّين والدعوة إليه وبيان الفَرْق بين هذا المنهاج الإلهي اليقيني والمناهج البشريّة الظنّيّة المحدثة: الشيخ د. محمد سعيد رسلان زاده الله من فضله.

وصلَّى الله وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه ومتّبعي سنّته وعلى جميع رسله وأوليائه.

سعد الحصيِّن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المدخل في الموضوع

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله [ومتَّبعي سنَّته][1].

أمَّا بعد، فإنَّ الإسلام دين الله [الأول و] الأخير، [أرسل الله به رسله جميعًا] لهداية البشريَّة إلى يوم يرث الله الأرض ومن عليها، وعليه يتوقَّف صلاحها وفلاحها إلى يوم القيامة، ومن ثمَّ جاءت عقائده وحقائقه [ثابتة] لا تتغيَّر، وشرائعه وأحكامه [كاملة] لا تقبل [النقص ولا الزيادة] ولا التَّعديل [ولا التغيير].

وتنحصر مسؤوليَّة أبناء المسلمين البررة المخلصين، وأنصاره وحماته من العلماء [الدعاة إلى الله] والمصلحين [في تجديد الدِّين والدعوة إليه بالعودة بهما إلى ما كان عليه النبي ﷺ، وأصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم رادِّين كلّ اختلاف أو تنازع إلى نصوص الوحي في الكتاب والسنة بفهم أئمة الفقه في الدِّين من سلف هذه الأمة في القرون الخيرة، لقول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾،

(١) ما كان بين معقوفتين هكذا: [...] فهو من زيادات الشيخ سعد الحصين رَحِمَهُ اللَّهُ، وكذلك الحواشي التي أضافها الشيخ مُيِّزت بختمها بكلمة (المهذب)، وما عداها فهي حواشي مؤلف الأصل. (المركز)

وقول الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾، وقول النبي ﷺ عن الفرقة الناجية: «من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي»، وقول النبي ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم...»]، وهذا ما فعله العلماء الربانيون في عصورهم المختلفة، فقد قاموا بهذه المسؤوليَّة الدَّقيقة في كلِّ الأوضاع والملابسات التي واجهتهم، جزاهم الله عن الإسلام خير الجزاء.

لكنَّ هذا العمل دقيق وعظيم بقدر ما هو واجب وضروريٌّ، فيجب على الَّذين يحاولون أن يقوموا بعمليَّة عرض الإسلام وتفهيمه وتقريبه إلى القلوب والأذهان، أن يلازموا الحيطة والدقَّة على طول الطريق في تحقيق غاياتهم وإكمال مهمَّتهم، حتَّى لا يتكون على غفلة منهم أو عن غير إرادة وقصد لهم لدى الجيل الجديد الذي يراد تعريفه بحقائق الإسلام وترسيخ عقائده في قلبه أو بقصد استخدامه لإعلاء كلمة الله، ورفع منار الإسلام منهاج أو عمل مختلف عن [المنهاج والعمل] الذي كان يتَّسم به الجيل الأوَّل، بفضل تلقِّيه الدِّين في أحضان النبوة مباشرة، وحتَّى لا ينحرف هذا الجيل في مناهج تفكيره [أو قوله أو عمله] عن الجادَّة التي رسمتها النبوة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، كما حدث [كثيرًا] في تاريخ الأديان القديمة [بل في تاريخ] المذاهب والفرق [والأحزاب والطوائف والجماعات الموصوفة بالإسلاميَّة]، لأنه إذا حدث الانحراف لم يكن تداركه وتلافيه [سهلًا] بأي [وسيلة من الوسائل غير الردّ إلى كتاب الله وسنّة رسوله بفهم خير فقهاء الأمة] الأول، فهو أقوى قوة، وأعظم ثروة، وأمضَى سلاح، وأغلى تراث لدى هذه الأمَّة، إنه سهل إفساده ولكن لا يمكن إصلاحه إلا بما أصلح الله به الصحابة والتابعين وتابعيهم في القرون الثلاثة الأولى.

ومن ثَم فهؤلاء [المجدِّدون] المخلصون الذين [بعثهم الله للقيام] بهذه المسؤوليَّة الجليلة، مسؤوليَّة التّجديد الرَّبَّاني للشريعة الإسلاميَّة عبر العصور، يستحقُّون كلّ تقدير واعتراف وشكر ودعاء منَّا ومن الأجيال المتلاحقة، حيث جنَّبوا هذه الأمَّة الوقوع فريسة الصراع بين الدِّين والعلم، والحروب الدمويَّة التي تأجَّجت نارها واشتدَّ أوارها بين المعسكرين المتنافسين الدِّينيّ والعلميِّ في القرون الوسطى في العالم [النصراني]، مما اضطرَّ [المفكر] الأمريكي (درابر) أن يضع كتابه الشهير (الصراع بين الدِّين والعلم).

وظلَّ هذا الواجب العظيم المبارك المفيد يؤدَّى عبر التَّاريخ الإسلاميِّ، وبعث الله في كلِّ قرن من المجدِّدين والمصلحين من قام بتجديد الإسلام، بكلّ جدارة ومقدرة وتوفيق، تصديقًا لقول النبي ﷺ: «إنَّ الله ليبعث على رأس كل قرن من يجدِّد لهذه الأمة دينها».

فلم يخلُ عصر من أولئك العلماء الرَّاسخين في العلم، المطَّلعين اطِّلاعًا دقيقًا على [نصوص الوحي والفقه فيه] قاموا بهذا التجديد الشرعي للإسلام قيامًا عظيمًا، وجاهدوا حتَّى لا [يتبعه] انحراف عن الصِّراط المستقيم، وعدول عن الجادَّة التي [قضى الله ورسوله أن تسير فيها وتثبت عليها] هذه الأمَّة.

وقيَّض الله العلماء الدعاة من يقفو أثر المجدِّدين ويُكمِل مهمّتهم العظيمة [بتعليم القرآن والسنة والدعوة أوَّلًا وقبل كل شيء إلى إفراد الله بالعبادة ونفيها عما سواه، والتزام السنة واجتناب الابتداع في الدِّين]، غير مدفوعين بنزعة من النزعات ولا متعصّبين لغير معصوم، ومستصحبين الفقه الأوّل في الوحي قابلين [من غيرهم] المحاسبة العلميّة والمراقبة والعناية بها عناية جدِّية، رجاء

أن يجعل الله عملهم أنفع وأجدى، وأعدل وأكثر خيرًا للأمَّة المسلمة وللبشريَّة جمعاء. وظهور هذين النَّوعين من العلماء ـ وإن قلّ ـ ظلَّ مستمرًّا ومتَّصلًا منذ عهد الصحابة ﷺ، وسيظلُّ إلى يوم القيامة، كما ينبئ به الحديث النبويُّ الذي رواه البيهقي [وغيره]: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»(١).

والواقع أن وجود هاتين الطَّبقتين ضروريٌّ، وعلى تعاونهما العلميِّ المتبادل [بفضل الله ومنَّته وعونه] يتوقَّف بقاء هذا الدِّين سليمًا، محافظًا على أصالته ونقائه، بعيدًا عن كلِّ تحريف وعبث وإفراط وتفريط.

منذ مطلع القرن [الثالث عشر الهجري] ظهر في العالم المسلم ـ الذي كان يعاني من التدهور الفكريِّ والانحطاط السياسيِّ ـ اضطراب فكريٌّ عجيب بفعل نفوذ أوروبا السياسي، وتقدُّمها الماديِّ الحثيث، وغزوها المتتابع، [واكتشافاتها] المتواصلة في مجال العلوم التجريبيَّة، جعل القيام بعمليَّة [تجديد الدِّين والدعوة] فرض كفاية إن كان مندوبًا قبل ذلك، [فالشباب المسلم الذين انفتحت لهم نوافذ على الثقافة الأوروبية والأمريكيّة لمخالطة أهلها أو بالقراءة عن حضارتها] قد تتزعزع جذور [الدِّين والدعوة] في قلوب كثير منهم بل يتنكَّر بعضهم لها ويشمئز منها، ووقع منهم عدد كبير فريسة [الابتعاد عن المصادر الرّبانية لمعرفة الحقيقة].

هنالك نهض في مختلف نواحي العالم [المسلم مفكرون وطلاب علم وكتاب] حاولوا أن يواجهوا هذا الموقف الحرج،

(١) مشكاة المصابيح، كتاب العلم، الفصل الثاني.

وتقلَّدوا مسؤوليَّة الدِّفاع عن الإسلام، في [كثير من بلاد المسلمين]، كل حسب عقليَّته وثقافته، ودراسته وتربيته، وجدارته ومقدرته، وعلى الرّغم من الاعتراف بقيمة هذه المحاولة وجدواها مهما قلّت لتذكير النُّفوس الصَّالحة وانتشالها من حَمْأة تلك البلبلة الفكريَّة، التي كانت تهبُّ أعاصيرها الهوجاء في العالم المسلم، إلَّا أنها كانت تتَّسم بالأساليب الدفاعيَّة والاعتذاريَّة، وكأنَّها ترمي أوَّلًا وقبل كلِّ شيء إلى إزالة الفجوة ـ أو تضييقها على الأقلِّ ـ بين الحضارة [الغربية وبين]، القيم الإسلاميَّة، كما كانت تنمُّ عن تقبّل المصطلحات [الفكرية و] السياسيَّة والاقتصاديَّة الغربيَّة على علَّاتها أو تطبيقها على أحكام الإسلام دون تحفُّظ أو احتياط، وربَّما نجدها تنطوي على تأويل بارد وتفسير غريب للإسلام [ونصوصه وفقهه].

ومن ثمَّ حاسب عدد من علماء الشريعة المعاصرين هذه المحاولة، مع الاعتراف بقيمتها الجزئيَّة، محاسبة علميَّة، وأبوا أن تقبل الأمَّة المسلمة كلها هذا [الفكر العصري الموصوف بالإسلامي]، وأخذوا بأيدي جماعة كبيرة من شباب المسلمين الذين كانوا قد تأثَّروا به إلى الصِّراط المستقيم، فسدُّوا منافذ التَّحريف [الفكري] التي فتحتها كتابات هؤلاء الأفاضل وبحوثهم دون قصد.

وقد تمَّ أكبر قسط من هذا العمل الذي يمتاز بمتانته وعمقه واعتداله، في [شبه القارة الهندية] أكبر مسرح للصراع بين الفكرة الإسلاميَّة والفكرة الغربيَّة، بحكم كونها خاضعة خضوعًا مباشرًا لسيطرة الاستعمار البريطانيِّ، وقد كانت الطبقة المثقفة المسلمة والشعب المسلم الهندي يحمل الشَّيء الكثير من روح المقاومة وقوَّة التَّماسك أمام الزَّحف الغربيِّ المعنويِّ المدمِّر، وذلك بفضل وجود مراكز التَّعليم الدِّيني في شبه القارَّة الهنديَّة، وبتأثير العلماء الربَّانيين، الذين آثروا الحياة الإيمانيَّة المُؤْثرة للآجلة على العاجلة، والتَّطوُّع

والاحتساب على الرواتب والمناصب، ولم تؤثِّر الحضارة الغربيَّة وقيمها ومثلها في حياتهم وتفكيرهم كما فعلت في كثير من البلاد المسلمة والعربيَّة التي ضعفت فيها أو اضمحلَّت [الهمّة لمقاومة الغزو الفكري العلماني].

وفي الهند استرعى الأستاذ أبو الأعلى المودودي في منتصف القرن الرابع عشر الهجري انتباه الطَّبقة المثقَّفة من المسلمين بمقالاته القيِّمة التي كان يكتبها في مجلَّته (ترجمان القرآن) الصَّادرة من حيدر آباد ـ الهند، في نقد الحضارة الغربيَّة، ونظام الحياة الغربيِّ، المقالات التي تتميز بأسلوبها الهجوميِّ، ونقدها اللاذع لحركة (التقدُّمية) و(التجدُّد) و(القوميَّة) المتطرِّفة؛ تلك المباحث والقضايا الهامَّة التي استهدفت [غوغاء الحداثيِّين] بصفة خاصة، وسطَّر قلمه عنها مقالات قويَّة مؤثِّرة، وطرق موضوعات الرِّبا، والحجاب، والجهاد، والرِّق، وحجيَّة الكتاب والسنة، والأحوال الشَّخصيَّة وما إليها من المسائل الهامَّة، وسيكون من الإجحاف أن لا نوفي الكاتب الكبير حقَّه من الاعتراف بما [أحدثته] مقالاته ومؤلَّفاته ورسائله من نفع في إعادة الثقة بالإسلام وبقيمه، وفي تخليص المثقفين من (مركَّب النقص) و(نفسية الهزيمة الداخليَّة).

ولكان من حسن الحظ لو جعل الأستاذ المودودي هذا العمل وحده نصب عينيه وجند له مواهبه الغنية، ووقف عليه حياته العلميَّة الخصبة[1].

---

(١) بل كان ينقصه ما هو أعظم من ذلك: الدعوة إلى إفراد الله بالعبادة والتحذير من الشرك بالله في عبادته أولى وأعظم ما أرسل الله به كل رسله في كل مكان وزمان، ولكنه قال للشيخ إسماعيل بن عتيق لما ذكّره بذلك: (أنتم [أهل نجد] تهدمون القبور ونحن نهدم القصور). والأكثرون مثله هداهم الله. (المهذِّب).

ولكنه هبَّ يمارس عملًا آخر نستطيع أن نسمِّيه (الصياغة [المحدثة] للفكر الإسلامي) واعتبره أساسًا لنهضة المسلمين، ولجمع كلمتهم، ونعني بذلك بصفة خاصة كتابه المستقل الذي أسماه (المصطلحات الأربعة في القرآن) الذي فسَّر فيه تلك المصطلحات القرآنية الأربعة التي يدور عليها الإسلام، وتقوم عليها تعاليمه ودعوته، تفسيرًا خاصًّا يتميَّز بالطَّابع السياسي ويدور حول (حاكمية الإله) و(سلطان الرب) يحدد علاقة العبد بربِّه في مفهوم خاص وفي حدود معينة، وينحصر به غرض نزول القرآن والدعوة الإسلاميَّة في تأسيس ما أسماه: (الحكم الإسلامي) و(إقامة الحكومة الإلهيَّة) فحسب. وكان له موقف خاص نتيجة طبيعية [لفهمه]: (الوسائل) و(الغايات) و(العبادة) و(الذكر)، أو (الأركان الأربعة العملية).

وهذا الكتاب (التفسير السياسي للإسلام) محاولة مخلصة للعمل بالوصية النبوية: «الدِّين النصيحة».

وقد أجَّلنا هذا العمل سنين طوالًا رغم حوافز ملحَّة كثيرة إلى تحقيقه وإجابة أسئلة كانت ترد من جهات مختلفة عن الجماعة وأسسها الفكريَّة، وعن طبيعة الاختلاف فيها وأسبابه.

والبحث في هذا الموضوع شائك دقيق، فله اتصال وثيق بمجموعة حبيبة من الإخوان الكرام، والزملاء الفضلاء الذين يشاركهم المؤلِّف في كثير من مجالات العمل الإسلامي، والكفاح في سبيل القضايا الإسلاميَّة، وللبحث اتصال وثيق بالحركة التي لا ينكر فضلها في إيقاظ الفكر الإسلامي، وإعادة الثِّقة إلى نفوس كثير من الشَّباب بصلاحية الإسلام للقيادة في هذا العصر، وكذلك كان المؤلِّف لا يأمن أن يُسْتغلَّ هذا البحث لبعض مصالح سياسية أو حزبية، أو يحمل ذلك على اتجاهات شخصية، أو ردود فعل لا يسلم منها الإنسان إلا إذا عصمه الله.

وقد بعُد العهد بالنَّقد البريء النَّزيه، المجرَّد من الأغراض السياسيَّة والدَّوافع الشَّخصيَّة، الذي لا يبتغى به إلا وجه الله وحبُّ هذا الدِّين الذي هو مصدر كلِّ خير وسعادة وعزَّة وقوَّة، وإيثاره على الأشخاص والجماعات، والرئاسات والقيادات، وعلى أصحاب المواقف المحمودة، والمآثر الجليلة في الدعوة والتَّربية والجهاد والبطولات، كما كان شأن أئمة الجرح والتعديل من المحدِّثين، في نقد كبار الصَّالحين والعلماء والعبّاد والزُّهّاد[١].

[قال أبو الحسن: ولم أُقْدم على] هذا البحث إلا حين عاشرت كثيرًا من الَّذين تخرَّجوا في المدرسة الفكريَّة التي تقوم على كتابات الأستاذ المودودي وحدها، وتعتمد على فهمه للدِّين؛ فلا يدينون في فهمهم لحقيقة الدِّين لمدرسة دينيَّة أخرى، بمعنى المدرسة الواسع. وبعد أن أفزعتني اتجاهات فكرية، وتفسيرات للدِّين بدت طلائعها في [الجدال] والفكر والتأليف، والعمل، فخشيت أن تنشأ طبقة أو مجتمع فيه عدد كبير من الشباب الأذكياء المثقَّفين، العاملين لمجد الإسلام، المخلصين في خدمة الإسلام والمسلمين، على منهج يختلف عن المنهج الإسلاميِّ الأوَّل في [الفهم] والدَّوافع النَّفسية والعقليَّة، والأهداف والغايات، والمثل والقيم، يُضْعف ما جاهد له الرَّسول وأصحابه، من إخلاص الدِّين لله، والعمل للآخرة، وتحقيق الإيمان والاحتساب[٢] السَّارية في الأعمال والتصرُّفات

(١) يرى القارئ نماذج رائعة من هذا النقد الصريح الأمين في كتب الجرح والتعديل مثل (كتاب المجروحين) لابن حبان، و(ميزان الاعتدال) للذهبي، ومقدمة صحيح مسلم.

(٢) (الإيمان والاحتساب) شرط لوقوع الأعمال الصالحة ـ حتَّى الفرائض والواجبات ـ موقع القبول عند الله، واستحقاق الفاعل للثواب والأجر عليها، جاء في صحيح البخاري: «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم =

بأسرها، فيتحول هذا الكفاح إلى مجرَّد عمليَّة تنظيم جماعيٍّ، أو محاولة الحصول على الحكم والسُّلطان للمسلمين، وقد يكون تحوُّلًا لا رجعة بعده إلى الأصل [إلا أن يشاء الله] كما جُرِّب ذلك مرارًا في تاريخ الأديان والفرق، والدَّعوات والحركات، فأقبلنا ـ مضطرِّين عَلِم الله ـ إلى التنبيه إلى هذا الخطر، ولو كان غامضًا أو بعيدًا، فالحبُّ يبعث على الإشفاق، والنُّصح يدفع إلى الإنذار [والإنكار].

وإني لأحمد الله على أن وفَّقني لتأليف هذا الكتاب في حياة الأستاذ المودودي، فقد أتممته في رمضان ١٣٩٨ (أغسطس ١:٧٨)، وصدر من المطبعة في المحرم ١٣٩٩ ديسمبر (١:٧٨)، وبادرت بإرسال نسخة منه مع رسالة شخصية رقيقة إلى الأستاذ المودودي أعتذر فيها عن هذا النقد العمليِّ الذي كان رائده الإخلاص والإشفاق، والنَّصيحة لله ولرسوله ولدينه، وإبداء ملاحظات على بعض تحقيقاته وتعبيراته. وقد ظلَّ الطَّرفان على صلات وديَّة، وحسن ظنٍّ كلٍّ واحد بصاحبه، واعتراف وتقدير، وجاءني ردٌّ لائق بمقامه العلميِّ والدَّعويِّ، وحسن تلقِّيه للبحوث العلميَّة، كتبه في ٢٣ من يناير ١٩٧٩ من لاهور، يشكرني فيه على هذه الملاحظات ويدعوني إلى مراجعة سائر كتاباته ومؤلَّفاته، وإبداء ما يُتَخوف منه على الفكرة الدِّينيَّة الصَّحيحة، ويقول: (إنني لا أستطيع أن أقول أنِّي سأوافق عليها تمامًا، ولكنِّي سأتأمَّل فيها، وإنَّني لا أعتبر نفسي فوق مستوى النَّقد واختلاف وجهات النَّظر)، وظهرت لكتابي (التفسير السياسي للإسلام) طبعة في باكستان اطَّلع

= من ذنبه» «ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»، وجاء بيان (الإيمان والاحتساب) في رواية للبخاري بلفظ: «رجاء ثوابها وتصديق موعودها».

عليها أعضاء الجماعة الإسلاميَّة، وتناول الكتابَ المجلاتُ والصحفُ الباكستانيَّة ـ بما فيها المجلات والصُّحف التي تعتبر لسان حال الجماعة ـ بالنَّقد والتَّقريظ وعلَّقَتْ عليه، كما تحدثت عن الطبعة الهنديَّة الصحفُ والمجلات الإسلاميَّة التي تصدر في الهند، وبعض مجلَّات الجماعة وصحفها.

وفوجئ العالم المسلم وفجع بوفاة هذا المفكِّر الإسلاميِّ الكبير في ٢٢ من سبتمبر ١٩٧٩، وفوجئتُ بالنبأ وأنا في دلهي في حفلة المجلس الاستشاري للجماعات والقيادات الإسلاميَّة في الهند، وشاء الله أن أكون بجوار زملائه وأصدقائه أعضاء الجماعة الإسلاميَّة الهنديَّة، وهم من أنشط أعضاء هذا المجلس الاستشاري العاملين، وألقيت صباح يوم الأحد غرة ذي القعدة ١٣٩٩ (٢٣ من سبتمبر ١٩٧٩) كلمة عزاء وتأبين في إحدى حفلات هذا المجلس التي مُثّلت فيها كل المنظَّمات الإسلاميَّة السياسيَّة وحضرتها شخصيَّات الشعب المسلم البارزة، بمناسبة معركة الانتخابات القادمة للبرلمان الهندي، وأدليتُ بحديث ضاف على أثر عودتي من العاصمة إلى مقرِّ عملي عن الرَّاحل العظيم، لمندوب المعهد العالي للدَّعوة والفكر الإسلاميِّ بندوة العلماء (لكنو)، وفي تفصيل أكثر لمندوب صحيفة ندوة العلماء الأرديَّة (تعمير حياة)، أذكر فيه صلتي بالمرحوم الأستاذ المودودي التي يرجع تاريخها إلى الثلاثينات الأولى من هذا القرن ومشاركتي إيَّاه في الدَّعوة والفكر، مع مقتطفات من رسائله، تلقي ضوءًا على ما كان بيننا من صداقة وثقة وتقدير.

وإنني الآن أحمد الله على أني لم أُضْطرَّ إلى نشر هذه الملاحظات النَّقديَّة على إثر وفاة الأستاذ المودودي، وإن كان الحقُّ حريًّا بأن يقال في الحياة وبعد الممات، وقد جرى على ذلك كثير من علماء الإسلام، فأبدوا آراءهم الحرَّة وملاحظاتهم الجريئة عن كبار

الرَّاحلين بعد وفاتهم، ولم يشعروا في ذلك بحرج أو إساءة إلى الرَّاحلين، والحقُّ أولى من الرِّجال، ولكنَّ إبداء ما يحيك في الصدر في حياة من يتَّصل به هذا التعليق أو النَّقد، أولى وأجمل وأيسر وأسهل من إبدائه بعد وفاته بأيَّام أو شهور أو سنين، والله المسؤول أن يجزل له المثوبة، ويغفر له الزلَّات التي لا يخلو منها أحد ولا المتحرُّون للحق من الكتَّاب والمفكِّرين، والعلماء والمؤلِّفين، [قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾].

ونرجو أنَّ إخواننا الذين ينتمون إلى (الجماعة الإسلاميَّة) سيكونون في مقدِّمة من يرحِّب بهذا الكتاب، ويقرأوه قراءة جدٍّ وإمعان، ولا يسارعون إلى اتِّهام هذا العمل بعصبيَّة حزبيَّة، أو بنزعة شخصيَّة، أو إرضاء حاجة ذاتيَّة، ولا يرون فيه معارضة للحركة الإسلاميَّة.

والذين يحاولون أن يخدموا الدِّين بكلِّ جد وإخلاص، ولا يريدون إلا إعلاء كلمة الله ورفع شأن الإسلام، وينشدون الحقَّ والصَّواب، ويحرصون على الفقه في الدِّين، فإنَّهم دائمًا يتلقَّون النَّقد البنَّاء، والنصائح والآراء والتوجيهات المخلصة ـ مهما خالفت آراءهم ـ بصدر رحب وقلب منشرح.

وكانت هذه الحسبة العلميَّة المخلصة النزيهة في طليعة العوامل التي صانت الأمَّة عن طغيان الانحراف عن الجادَّة، والابتداع في الدِّين، والشذوذ الجماعيِّ، والعثرة المردية، في تاريخها الطَّويل، ورحلتها الشَّاقَّة الشَّاسعة في ميادين الاجتهاد والاستنباط، [والبحث عن الدليل الشرعي مقرونًا بفقه الأئمة الأوَل في القرون الخيِّرة] ورفع الحرج عن الأمَّة، وإنارة السَّبيل [لطالبي الهداية]، وحفظ [الكتّاب و] العلماء [والدعاة وطلاب العلم عن] الافتيات في

الرَّأي، والإعجاب بالنَّفس وادِّعاء أتباعهم العصمة لهم، وحفظ الأمَّة عن أن تقع فريسة لغلوٍّ أو تطرُّف أو شذوذ أو [انحراف عن منهاج النبوة والصحبة].

وقد تكرر في الكتاب والسُّنة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وإيجاب القيام بهما [حسب الاستطاعة] في كلِّ زمان ومكان، والتحذير من التواني فيهما، وقام المسلمون الأوائل خصوصًا علماؤهم بهذه الفريضة خير قيام، فاستحقُّوا ثناء الله عليهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾. ولا يمنع من هذا التنبيه على خطأ أو زلَّة، والإرشاد إلى الأنفع الأصلح والأقوم الأسلم، تبوء مَنْ تعرض لهذا الخطأ الاجتهادي أو السهو والنسيان اللَّذين هما من خصائص الإنسان مكان قيادة، أو اشتغاله لمصلحة اجتماعيَّة للأمَّة، أو سلامة نيَّة، أو غناؤه في كفاح أو نضال، فقد كان الصحابة ﷺ يذكِّرون أفضل الرُّسل وسيّد البشر ﷺ إذا سها، فقد قال ذو اليدين لرسول الله ﷺ وقد صلَّى الرباعيَّة اثنتين: أقصرت الصَّلاة أم نسيت يا رسول الله؟ فيما رواه البخاري ومسلم، [وفي رواية لمسلم: «إنما أنا بشر أنسى كما تنسون، فإذا نَسِيت فذكِّروني»]. وعزل أمير المؤمنين عمر ـ وهو أعرف المسلمين بمصالح الإسلام والمسلمين ـ خالدًا في معركة اليرموك، وهي معركة حاسمة في تاريخ المسلمين، ونصَّب أبا عبيدة مكانه.

ولو أخذ المسلمون في ماضيهم بحجّة عدم إحداث التشويش في صفوف المسلمين بعين الاعتبار وكفُّوا عن التنبيه على الزلل والخطأ، لانقطع هذا التيار الحيويُّ المبارك من حركة الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، والحسبة في الدِّين، والشَّهادة بالحقِّ، عن جهاز الأمَّة الاجتماعيِّ والخلقيِّ، ووقف القلب المسلم

عن توزيع الدَّم الصحيح إلى الشرايين والعروق، وكان ما يعقب ذلك من التباس الأمور على أهل العلم والرَّأي، وانجراف العامَّة للتيَّارات والبدع، واختفاء كثير من حقائق الدِّين، أعظم وأخطر من اعتراف هذا القائد أو الإمام أو العبقريِّ بخطئه في التعبير، أو تقصيره في الفهم أو التَّفهيم، فإنَّ العصمة الله وحده، وكلٌّ يؤخذ من قوله ويردُّ إلَّا رسول الله ﷺ.

أمَّا (الجماعة الإسلاميَّة) فهي أولى بالعمل بهذا المبدأ، فدستورها الأساسيُّ ينصُّ عليه فيقول: (لا يعتبرنَّ أحدٌ أحدًا معيارًا للحقِّ، إلَّا رسول الله ﷺ ولا يظنّه أعلى من أن يناله أحد بالنَّقد أو يجد فيه مأخذًا، ولا يسوغ لأحد أن يخضع لآخر عقليًّا وفكريًّا، بل يجب عليه أن يقيس كل إنسان بهذا المقياس الإلهيِّ الكامل، ويضعه بعد القياس والوزن في مكانه الذي يستحقُّه)[١].

ونحن [نستغرب] جدًّا من الجماعة التي كان منطلقها من النَّقد الجريء لكلِّ العصور الإسلاميَّة، والطَّبقات الإسلاميَّة، وتقييم الحركات والجهود [السابقة أو اللاحقة] أن يكون عند أعضائها في الدَّاخل أو أصدقائها في الخارج، تعظيم يبلغ حدَّ التَّقديس لمؤسِّسها والدَّاعي إليها، وأن تكون عندهم حساسيّة زائدة في كلِّ ما يوجه له من نقد أو ملاحظات أو مآخذ[٢].

وقد ضرب الأستاذ أبو الأعلى المودودي لذلك مثلًا عمليًّا حينما وضع كتابه (التجديد وإحياء الدِّين) (باللغة الأرديَّة) الَّذي

(١) دستور الجماعة الإسلاميَّة الهنديَّة ـ معدلًا ـ طبع المكتبة الإسلاميَّة المركزية.
(٢) كانت مفاجأة حقًّا للمؤلف حين تلقَّى رسائل حانقة تنبئ عن استياء شديد، ونقد لاذع من عدد من المنتمين إلى الجماعة في الهند على إثر صدور الطبعة الأردية.

تناول فيه مآثر عدد من كبار رجال التَّجديد والإصلاح في تاريخ الإسلام بالنَّقد والتَّحليل، ولم يحل بينه وبين أن يبدي آراءه وانطباعاته عن هؤلاء الأعلام، عظمتُهم وشهرتُهم، وعلوّ مكانتهم عند النَّاس.

[وكذلك فعل الأستاذ سيّد قطب فقد انتقد ـ بتجاوز منكر ـ عددًا من الصّحابة خمسة منهم من المبشرين بالجنة ومنهم عثمان بن عفان الخليفة الراشد المهدي إلى درجة إسقاط خلافته (العدالة الاجتماعية ص١٧٢، دار الشروق ١٤١٥). وانتقد الزبير وعبد الرحمن بن عوف وزيد بن ثابت وسعد بن أبي وقاص والمقداد ويعلى بن منبّه، وتجاوز الحدَّ الشرعي في النكير على معاوية (ووالديه) وعلى عمرو بن العاص رضي الله عنهم وأرضاهم في كتابه (العدالة الاجتماعية ص١٥٩ - ١٧٥)، بل أنكر على عمر بن الخطاب ﷺ الله إيثار بعض المسلمين على بعض في العطاء (العدالة ص١٧٥) مع أنها السّنة الثابتة.

وسيّد قطب يقرّ الإنكار الشرعي على المخطئ أيًّا كان؛ يقول: (إن منهج الله ثابت... والبشر يَبْعدون أو يَقْربون من هذا المنهج، ويخطئون ويصيبون... وحين يخطئ البشر.. فإنه يصفهم بالخطأ مهما تكن منازلهم وأقدارهم... ونتعلم من هذا أن تبرئة الأشخاص لا تساوي تشويه المنهج وأنه من الخير للأمة المسلمة أن تبقى مبادئ منهجها سليمة ناصعة قاطعة وأن يوصف المخطئون والمنحرفون بالوصف الذي يستحقُّونه أيًّا كانوا وألّا تبرّر أخطاؤهم وانحرافاتهم أبدًا (في ظلال القرآن ص٥٣٣، دار الشروق)].

وهذا الكتاب [التفسير السّياسي للإسلام]، محاولة متواضعة في هذا الاتِّجاه الَّذي سار فيه الأستاذ أبو الأعلى والأستاذ سيد قطب،

وآمل ألا تؤخذ هذه المحاولة بقانون الاتجاه الواحد الذي يعمل به في تنظيم حركة المرور فيطبّق على النَّقد العلمي، والبحث عن الأصلح الأنفع، وعرض حصيلة الدِّراسات، وعصارة التَّفكير، ولو طُبِّق هذا القانون على عالم التَّفكير والتَّأليف لشُلَّ الذِّهن الإنسانيّ، وتعطَّلت الحركة العلميَّة، ووقف سير الإصلاح والتجديد، والموافاة بالمفيد الجديد، إلى الأمَّة الَّتي كشجرة طيِّبة أصلها ثابت، وفرعها في السَّماء تؤتي أكلها كلَّ حين بإذن ربِّها.

والله يقول الحقَّ وهو يهدي السَّبيل.

أبو الحسن علي الحسني الندوي
١٣ من ذي القعدة الحرام ١٣٩٩
٩ أكتوبر سنة ١٩٧٩
رايء بريلي، (الهند)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(المصطلحات القرآنية الأربعة)
في فكر المودودي

هل بقيت المصطلحات الأربعة القرآنيَّة مجهولة عبر القرون [وجهلت الأمّة حقيقة الإسلام]؟ حاشا وكلّا.

يحاول المفكِّر الإسلاميُّ المعاصر الأستاذ أبو الأعلى المودودي مؤسِّس (الجماعة الإسلاميَّة) في كتابه المعروف (المصطلحات الأربعة في القرآن) أن يؤكِّد ـ وهو يتحدَّث عن كلمات: (الإله) و(الرَّب) و(الدِّين) و(العبادة) ـ أنَّ هذه الكلمات القرآنيَّة والمصطلحات الإسلاميَّة الأساسيَّة، كان يفهمها جيِّدًا كلُّ من كان يخاطبه القرآن لدى نزوله [من المشركين والمؤمنين ويدرك أغوار معانيها الأصيلة، لأنَّ القرآن عربيٌّ وكان المخاطب عربيًّا ثم ضاق عقل المسلم عن فهمها كثيرًا؛ يقول: (لما نزل القرآن في العرب وعُرِض على النَّاطقين بالضاد كان حينئذ يعرف كلُّ امرئ منهم ما معنى (الإله) وما المراد بـ (الرَّبّ) لأن كلمتي (الإله) و(الرَّب) كانتا مستعملتين في كلامهم من قبل، وكانوا يحيطون علمًا بجميع المعاني التي تطلقان عليها، ومن ثمَّ إذا قيل لهم: لا إله إلا الله ولا ربَّ سواه ولا شريك له في ألوهيَّته وربوبيَّته، أدركوا ما دُعُوا إليه تمامًا،

وتبيَّن لهم من غير ما لبس ولا إبهام أيُّ شيء هو الَّذي قد نفاه القائل ومنع غير الله أن يوصف به، وأي شيء قد خصَّه وأخلصه لله تعالى، فالذين كفروا إنما كفروا عن بيِّنة ومعرفة بكل ما يبطله وينعى عليه كفره بألوهيَّة غير الله وربوبيته، وكذلك من آمن [فقد آمن] عن بيِّنة وبصيرة بكلّ ما يوجب قبول تلك العقيدة أو الانسلاخ عنها.

وكذلك كانت كلمتا (العبادة) و(الدِّين) شائعتين في لغتهم وكانوا يعلمون ما العبد، وما الحال التي يعبر عنها بالعبوديَّة، وما هو المنهاج العملي الذي يطلق عليه اسم (العبادة) وما مغزى (الدِّين) وما هي المعاني التي تشتمل عليها هذه الكلمة، ومن ثمَّ لمَّا قيل لهم: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾، وادخُلوا في دين الله منقطعين عن الأديان كلِّها ما أخطأوا في فهم هذه الدَّعوة التي [أنزل الله] بها القرآن.

وما أن قرعت كلماته أسماعهم حتَّى تبيَّنوا أيَّ نوع من التغيير في نظام حياتهم جاءت تطالبهم به تلك الدَّعوة)[1].

لكنَّ الحال [في رأيه] لم يعد على هذا المنوال، بل غابت عن النَّاس وخفيت عليهم هذه الحقائق المشرقة، وتراكم على المصطلحات الأربعة في القرآن ـ الَّتي هي في منزلة المبادئ الأوَّليَّة للإسلام ـ غبار كثيف من الجهل والعجمة، والغفلة والإهمال، وكان ذلك على أثر انقراض عهد النُّبوَّة، والجيل الذي أدرك العصر الجاهليَّ ونشأ في الإسلام، يقول الأستاذ الفاضل:

(ولكنه في القرون التي تلت ذلك العصر الزاهر، جعلت تتبدل

(١) (المصطلحات الأربعة في القرآن) ص٨، ٩ الطبعة الرابعة طبع (الدار الكويتيَّة).

المعاني الأصليَّة الصحيحة لجميع تلك الكلمات، تلك المعاني التي كانت شائعة بين القوم عصر نزول القرآن، حتَّى أخذت تضيق كل كلمة من تلكم الكلمات الأربع عما كانت تتَّسع له وتحيط به من قبل، وعادت منحصرة في معان ضيِّقة محدودة ومخصوصة بمدلولات غامضة مستبهمة، وذلك لسببين اثنين:

الأوَّل: قلَّة الذَّوق العربيِّ السَّليم ونضوب معين العربيَّة الخالصة في العصور المتأخِّرة.

الثاني: أنَّ الَّذين ولدوا في المجتمع [المسلم] ونشؤوا فيه، لم يكن قد بقي لهم من معاني كلمات (الإله) و(الرب) و(العبادة) و(الدِّين) ما كان شائعًا في المجتمع الجاهليِّ وقت نزول القرآن. ولأجل هذين السَّببين أصبح اللُّغويون والمفسِّرون في العصور المتأخِّرة يشرحون أكثر كلمات القرآن في معاجم اللغة وكتب التَّفسير بالمعاني الَّتي فهمها المتأخِّرون من المسلمين بدلًا من معانيها اللغوية الأصليَّة، ودونك من ذلك أمثلة:

إنَّ كلمة (الإله) جعلوها كأنَّها مترادفة مع كلمة الأصنام والأوثان، وكلمة (الرَّب) جعلوها مترادفة مع الَّذي يربِّي وينشئ، وللذَّات القائمة بأمر تربية الخلق وتنشئتهم. وكلمة (العبادة) حدَّدوها في معاني التألُّه والتنسُّك والخضوع والصَّلاة بين يدي الله. وكلمة (الدِّين) جعلوها نظيرًا لكلمة النِّحلة وكلمة (الطَّاغوت) فسَّروها بالصَّنم أو الشَّيطان).

ثم يقول وهو يتحدَّث عن نتائج [ما ظنَّه تغيُّرًا] في الفهم والإدراك:

(فمن الحقِّ الذي لا مراء فيه أنه قد خفي على النَّاس معظم تعاليم القرآن، بل وغابت عنهم روحه السامية وفكرته المركزيَّة،

لمجرَّد ما غشي هذه المصطلحات الأربعة الأساسيَّة من حجب الجهل، وذلك من أكبر الأسباب التي قد تطرَّق لأجلها الوهن والضعف إلى عقائدهم وأعمالهم رغم قبولهم دين الإسلام وكونهم في عداد المسلمين) المصدر نفسه.

صلاحية الأمَّة للتلقِّي ومزيَّة القرآن في الإبانة

ولا يبعد أن يفهم منه القارئ الذي لم يتعمَّق في العلم، ولم يزدد إيمانه [بتلاوة وتدبّر] هذا الكتاب الخالد ـ بجميع معاني الكلمة ـ أنَّ القرآن قد بقي هذه المدة الطويلة ملتبسًا على الأمَّة أو ـ في تعبير متحفِّظ ـ على أكثر أفرادها، ومضت على ذلك قرون وأجيال ولم تتبيَّن الأمَّة حقيقة الكلمات التي يدور عليها هذا الكتاب، وتقوم عليها تعاليمه ودعوته، إلا في العصر الأخير حين قيَّض الله لفهمها ورفع اللِّثام عنها بعض الكتَّاب الإسلاميِّين! وهذه مصيبة.

وهذا الفهم [قد يُختلف في تحديد مدى خطره] ولكنَّه عميق الجذور بعيد العواقب في التَّفكير الإسلاميِّ، لأنه يشكِّك في صلاحيَّة هذه الأمَّة ومركزها القياديِّ والدعويِّ، وفي فهم هذه الأمَّة لكتاب الله عزَّ وجلَّ والعمل به في تاريخها الطَّويل، ويقلِّل من قيمة مآثر المجدِّدين والدعاة العلماء والمجتهدين العلميَّة والعمليَّة، فإنَّ الكتاب الذي لم تُفْهم [أهم ألفاظه] حقَّ الفهم في مدة [طويلة معمورة بالتجديد والعلم والدعوة]، يُشَكُّ في إبانته ووضوحه وإفادته، ويُشَكُّ في كلِّ ما يقال عنه ويفسّر به في هذا العصر وبعده، وذلك يفتح الباب للتوسُّع في تأويله على مصراعيه ـ كما فعلت الباطنيَّة في مختلف أشكالها ـ [أو] يشجِّع المحاولات التي

ترمي إلى تحويل الحقائق الدِّينيَّة إلى لغز مستعصٍ على الفهم والإدراك.

الصلة بين الكلمات والمعاني:

وقد يعجز كثير من القرَّاء الكرام الذين قد لا يتمتَّعون بنظرة عميقة في تاريخ المذاهب والفرق عن إساغة [ما أجملناه]، فنرى من المناسب أن نثبت هنا ما قلناه عن هذه (الاستراتيجية) الدَّقيقة التي استخدمتها الباطنيَّة، في الجزء الأول من كتابنا (رجال الفكر والدَّعوة في الإسلام):

[لقد تنبَّه الباطنية إلى] أنَّ أصول الديانة الإسلاميَّة وعقائدها وأحكامها ومسائلها إنما عرضت في أطر ألفاظ وكلمات تدلُّ عليها وتعبِّر عنها عند كلِّ رسالة جديدة، والله يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾. وقد تعيَّنتْ معاني هذه الكلمات ومفاهيمها، وتواتر ذلك عمليًّا ولفظيًّا في الأمَّة وعرفته الأمَّة الإسلاميَّة ودانت به، فكلٌّ من كلمات (النُّبوَّة) و(الرِّسالة) و(الملائكة) و(المعاد) و(الجنَّة) و(النَّار) و(الشَّريعة) و(الفرض) و(الواجب) و(الحلال) و(الحرام) و(الصَّلاة) و(الزَّكاة) و(الصَّوم) و(الحجّ) يؤدي معنى خاصًّا، وتفهم منها مفاهيم خاصَّة لا يشكُّ فيها مسلم، ولا يختلف فيها اثنان، وكما أنَّ هذه الحقائق الدِّينية التي تعبِّر عنها هذه الكلمات ظلَّت محفوظة في الأمَّة تتوارثها الأجيال، وتنتقل مع الزَّمان، [فقد بقيت] ثروة محفوظة لم تعبث بها يد التَّحريف، وقد أصبح كلٌّ منها لازمًا لصاحبه، فإذا أطلقت كلمة (الصلاة) مثلًا انتقل الذِّهن إلى هيئة عبادة خاصَّة، فيها قيام وركوع وسجود وقراءة وتسليم، إلى غير ذلك ممَّا يدخل في أركان (الصَّلاة) وأجزائها وأوضاعها، وكذلك إذا أطلقت كلمة (النبوَّة) أو (المعاد)

تعيَّن منهما ذلك المفهوم [الشرعي] الذي يفهمه المسلمون ويدينون به.

لقد أدرك (الباطنية) أنَّ هذه الصِّلة القائمة بين الكلمات والمصطلحات الدِّينيَّة ومعانيها أساس يقوم عليه [دين الإسلام وبناؤه العلمي] والعملي في حياة المسلمين، ولهذه الصِّلة توجد الوحدة الدِّينيَّة بين المسلمين، فإذا فُقدت الصِّلة بين الكلمات والمعاني وأصبحت الكلمات لا تدلُّ على معنى خاصٍّ ومفهوم معيَّن، أو تسرَّب الشكُّ والاختلاف إليها أصبحت هذه الأمَّة فريسة لكلِّ دعوة [أو فكر موصوف بالإسلامي]، وساغ لكلِّ أحد أن يقول ما يشاء، ويروج ما يشاء على كثير من العامَّة وأشباه العامَّة بل الخاصَّة، وعمَّت الفوضى [الفكريَّة] والدِّينيَّة، وذلك ما يريده [الشياطين] ومنه، يدخلون)[1].

المزايا الأساسية للقرآن:

ثمَّ إنَّ [فكرة الجهل بما سُمِّي (المصطلحات الأربعة القرآنية) بعد عصر نزول القرآن] تخالف الحقيقة العلميَّة والعقيدة الدِّينيَّة، وهي أنَّ هذه الأمَّة لم تتلقَّ الدِّين [من الوحي في الكتاب وحده بل ومن الوحي في السنة المبينة للقرآن بفهم سلف الأمة] بل والتطبيق العملي وظلَّت تنتقل الكلمات والمعاني والمفاهيم من جيل إلى جيل، وظلَّت تتوارثها الأجيال، فضلًا عن أن هذه الفكرة تنافي وصف الله تعالى لهذا الكتاب بالإبانة والوضوح [والحفظ في آيات كثيرة محكمة] من القرآن:

---

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام الجزء الأول، ص١٦٦ - ١٦٨، الطبعة الثانية، طبع (دار القلم) - الكويت.

جاء في مستهلِّ سورة «يوسف»: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢﴾.

وفي مطلع سورة «الحجر»: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾.

وفي مفتتح سورة «النمل»: ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٖ ۝١﴾.

وفي الآية الأولى من سورة «الشُّعراء»: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾.

وفي سورة «الشُّعراء» تقرير واضح عن صلاحية الإبانة والتَّفهيم الَّتي يفيض بها الوحي الذي نزل به الرُّوح الأمين: جبريل، على قلب النبي ﷺ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ۝١٩٥﴾.

وتبتدئ سورة «الزخرف» بقول الله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾.

وقال الله تعالى في سورة «النحل»: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾.

وهل يسوغ لعاقل أن يعتقد أن ذلك الكتاب الذي نصَّ الوحي مرارًا وتكرارًا وفي قوَّة وإلحاح على إبانته ووضوحه [وبيان النبي ﷺ لكلماته ومصطلحاته ومعانيه] وكونه سهلًا سائغًا للفهم عجز عن تفهيم مصطلحاته الأربعة التي يدور حولها نظامه الاعتقاديُّ والعمليُّ والدعويُّ وتقريب معانيها الحقيقيَّة ومفاهيمها الأصليَّة إلى العقول والأذهان [منذ القرون الأولى]؟

وقد نصَّ الوحي الإلهي على أنَّ آيات القرآن محكمة ومفصَّلة،

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وقال تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾.

يقول المفسِّر [الثقة] الحافظ عماد الدِّين أبو الفداء إسماعيل بن كثير (توفّي عام ٧٧٤) في تفسير ﴿ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾: (أي بيِّنات واضحات الدِّلالة، لا التباس فيها على أحد) ويُورِد في هذا المعنى قول محمد بن إسحاق بن يسار: (فهنَّ حجّة الرَّبِّ وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس لهنَّ تصريف ولا تحريف عما وُضِعنَ عليه).

ويقول العلّامة شهاب الدِّين السَّيد محمود بن عبد الله الآلوسي (توفي عام ١٢٧٠) في تفسيره المعروف (روح المعاني) لدى الحديث عن لفظ ﴿مُّحْكَمَٰتٌ﴾: (صفة آيات: أي واضحة المعنى ظاهرة الدِّلالة، محكمة العبارة، محفوظة من الاحتمال والاشتباه).

أما كون الآيات القرآنيَّة مفصَّلة فقد جاء النَّصُّ على ذلك في ١٥ موضعًا من القرآن الكريم، في مختلف الصيغ وأنواع الأساليب[١].

إنَّ هذه الصِّفات والنُّعوت هي الأخرى تنافي الفكرة القائلة بأنَّ العديد من الحقائق القرآنيَّة [العظمى] ظلَّت خافية على النَّاس [منذ القرون الخيِّرة].

---

(١) الآيات: ٥٨، ٩٧، ٩٨، ١٢٦ من الأنعام، و٣٢، ٥٢، ١٧٤ من الأعراف، و١١ من التوبة، و٥ من يونس، و٢٤، ٢٨ من الروم، و٢ من الرعد، و١ من هود، و٣، ٤٤ من فصلت.

ثمَّ إنَّ هذا التشكيك في فهم الأمة للمصطلحات الأربعة الأساسية يناقض قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾.

والوعد بالحفظ في موضع الامتنان وتذكير الفضل والإحسان يستوجب الفهم والشَّرح والعمل والتَّطبيق، [ولا يليق] بكتاب الله أن يظلَّ بضعة عشر قرنًا لا يفهم ولا يعمل به، وقد قال الله لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾.

يقول العلّامة أحمد بن عبد الرحيم وليُّ الله الدَّهلوي (توفي عام ١١٧٦هـ) في كتابه (إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء) في معرض الحديث عن قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾:

(يقول الله تبارك وتعالى: إنَّ علينا إبانة القرآن وإيضاحه... وقد كان النَّبي ﷺ نفسه هو المفسِّر للقرآن وشارحه الأول [كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾... وجاء [تدوين] تفسير القرآن في الواقع العمليِّ بعدما تمَّ تدوين القرآن وجمعه في المصاحف... وكان عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنه هو [ترجمان القرآن] ص٥١.

إذن؛ فبعد هذا الوعد الإلهيِّ المؤكَّد الصَّريح المتمثِّل في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ لا مساغ للقول بأنَّ الكلمات القرآنيَّة الجذريَّة ـ التي لا يمكن الوصول إلى مفاهيم [الدِّين] ومعانيه وأحكامه ومطالبه المرادة [من الله] بدونها ـ بقيت قرونًا طوالًا غير مفهومة، ولا يعني هذا الاعتقاد إلا نقضًا للآية الكريمة السَّالفة الذِّكر، في مفهومها ومعناها ومقتضاها.

الأمَّة لم [تجتمع على ضلالة في أيِّ قرن]:

إنَّ هذا الأسلوب من البحث وهذا المنهج من التفكير [في كتاب (المصطلحات الأربعة في القرآن) للأستاذ المودودي يؤكّدان] أنَّه قد أتى على هذه الأمَّة المسلمة كل قرونها بعد عصر نزول القرآن وهي جاهلة لمصطلحات القرآن الأساسيَّة ومعانيها ومدلولاتها الحقيقيَّة التي تتوقَّف عليها صحَّة [فقهها] وصحَّة عملها، الأمر الذي يرمي الأمَّة بالجهل [المطبق] والإهمال بل وبالضَّلال المبين، على حين أنَّ كتاب الله ودواوين السُّنّة بمجموعها تدلُّ دلالة قاطعة على أنَّ هذه الأمَّة سوف لا تمنى بالضَّلال المطبق الشَّامل في أيّ [قرن من قرونها]، وقد قال النبي ﷺ: «إنَّ الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»، وروي عنه ﷺ: «لا تجتمع أمَّتي على ضلالة»، يقول المحدِّث الأندلسيُّ العلَّامة أبو محمَّد عليُّ بن حزم (المتوفى ٤٥٦هـ) في كتابه (الإحكام في أصول الأحكام):

(وهذا وإن لم يصحَّ لفظه ولا سنده[١]، فمعناه صحيح بالخبرين المذكورين آنفًا)[٢] إشارة إلى الخبرين اللَّذين ساقهما فيما قبل هذه السُّطور، أحدهما عن ثوبان، وثانيهما عن معاوية رضي الله عنهما، وهما: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحقِّ لا يضرُّهم من خذلهم حتَّى يأتي أمر الله وهم كذلك» و«لا تزال طائفة من أمتي قائمة

(١) هذا ما يراه العلامة ابن حزم، أما العلامة السخاوي، فيقول: وبالجملة فهو حديث مشهور المتن ذو أسانيد كثيرة وشواهد متعددة. انظر كتابه (المقاصد الحسنة) فصل اللام ألف.

(٢) (الإحكام في أصول الأحكام) ج٤، ١٣١، الطبعة الأولى، طبع مطبعة السعادة بمصر.

بأمر الله لا يضرُّهم من خذلهم ولا من خالفهم حتَّى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على النَّاس»، وفي رواية: «وهم على ذلك».

ويقول العلَّامة الحافظ أبو عبد الله ابن قيم الجوزية (المتوفى ٧٥١): (فإنَّ الأمَّة ولله الحمد لم تجتمع على ترك العمل بسنَّة واحدة، إلّا سنَّة ظاهرة النَّسخ، معلوم للأمَّة ناسخها وحينئذٍ يتعين العمل بالنَّاسخ دون المنسوخ)[1].

ويقول الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ عن سبيل المؤمنين: (فإنه قد ضُمِنَتْ لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ، تشريفًا لهم وتعظيمًا لنبيِّهم، وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك) ج ص٣٩٣ ط. دار الأندلس.

ويقول شيخ الإسلام تقيُّ الدِّين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية رحمة الله عليه (المتوفى ٧٢٨) [أثناء] البحث في (الإجماع):

(وأمَّا إجماع الأمَّة فهو حقٌّ، لا تجتمع الأمَّة والحمد لله على ضلالة كما وصفها الله بذلك في الكتاب والسنة، فقال تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ وهذا وصف لهم بأنَّهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر، كما وصفهم ربُّهم بذلك في قوله: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾. فلو قالت الأمَّة في الدِّين بما هو ضلال لكانت لم تأمر بالمعروف في

(١) (أعلام الموقعين) ج٢، ص٣٢٠.

ذلك ولم تنهَ عن المنكر فيه، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[1].

شهادة العقل السليم:

ولا يمكن للعقل السَّليم أن يؤمن بأنَّ هذه الأمَّة ـ الَّتي أنجبت عددًا هائلًا من عباقرة العلماء [الفقهاء الدعاة] ونوابغ المدونين للعلوم [الشرعيَّة]، لا سيما في القرون الخيِّرة التي تلت عهد الرسالة وعصر نزول القرآن ـ عاشت في جهل متَّصل بتلك الحقائق الأساسيَّة التي مفتاح فهم القرآن ومحور الدَّعوة إلى [الدين].

والأستاذ المودودي نفسه يرفض التسليم بأن علماء الأمَّة بأجمعهم قد أخطأوا في فهم نصٍّ من نصوص القرآن أو الحديث، وما تبيَّنوا الخطأ مدَّة مديدة، يقول الأستاذ الفاضل [أثناء] البحث في حديث: «الأئمة من قريش»: (هل يجوز أن يُسَلَّم أن علماء الأمَّة بأسرهم قد أخطأوا في فهم نص من النصوص وأنهم ظلُّوا رهان هذا الخطأ قرونًا؟)[2].

على حين أنَّ حديث «الأئمَّة من قريش» لا يتصل [بالاعتقاد]،

---

(١) (مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية) ج١٩ ص١٧٦ - ١٧٧.
واقرأ للتفصيل والاطلاع على الدلائل الشرعية والعقلية فيما يتصل بصيانة الدِّين، البحث القيم للعلامة الإمام أبي إسحاق الشاطبي (المتوفى ٧٩٠هـ) بعنوان: (المسألة الثانية عشرة) في الجزء الثاني من كتابه العظيم (الموافقات في أصول الشريعة) الذي استهلَّه بما يلي: (إنَّ هذه الشريعة المباركة معصومة كما أن صاحبها ﷺ معصوم، وكما كانت أمته فيما أجمعت عليه معصومة) ج٢ ص٥٨ - ٦١.

(٢) (تفهيمات) (بالأردية) الجزء الثالث، ص١٧٦، توزيع المكتبة المركزية للجماعة الإسلاميَّة، دلهي ـ الهند.

ولا بضروريَّات الدِّين ولا بأوَّلياته وقطعيَّاته؛ أما (المصطلحات القرآنيَّة الأربعة) فإنها قطب تدور حوله رحى الدِّين، وهي مناط الفقه والعمل في هذه الأمَّة.

وقد احتجَّ الأستاذ في ضوء هذا المبدأ ـ الذي يقرره العقل السَّليم والمنطق المستقيم، ويستوجب الاعتراف والتَّسليم ـ على القاديانية بكلمة (خاتم النَّبيِّين) التي بقيت الأمَّة المسلمة عبر عصورها لا تفهم منها إلا معنى واحدًا، ليس إلَّا، وقد سرد في هذا الصَّدد أقوال أئمَّة الأمَّة في كلِّ عهد من عهودها.

[وشهد شاهد من أهلها]:

يقول الأستاذ حسن بن إسماعيل الهضيبي ـ الذي عيِّن مرشدًا عامًّا للإخوان المسلمين بعد [الأستاذ المؤسِّس] حسن البنا ـ معلِّقًا على تقرير الأستاذ المودودي جهل المسلمين بعد عصر النبوة بالمصطلحات الأربعة في القرآن في كتابه (دعاة لا قضاة)؛ (إنَّ هذا التقرير لا يتَّفق مع الواقع، ذلك أنَّه أيًّا كانت المعاني التي كانت شائعة في الجاهليَّة لتلكم الكلمات، فإنَّ القرآن الكريم قد جاء محدِّدًا ما يقصده من كلٍّ منها، معرِّفًا المفهوم المعنِيَّ من كلِّ لفظة من ألفاظها، مبيِّنًا ذلك غاية البيان، مجلِّيًا المعنى المراد بما لا يدع مجالًا للبس أو غموض. وهذا البيان القرآنيُّ قد أغنى عن الرجوع إلى أصل تلك الكلمات في اللغة وما كان لها من معانٍ قبل نزوله، ولا يستريب مسلم أن بيان القرآن الكريم هو الأحكم والأوضح والأشمل والأجلُّ، بل هو الذي يتعيَّن الأخذ به والتَّسليم بمقتضاه [سواء] وافق ذلك ما كان قبل نزوله أم لا؟) ص١٩ ـ ٢٠.

ثم يضيف قائلًا بعدما استشهد بالآيات التي استخدمت فيها

هذه الكلمات: (أيصحُّ ـ في الواقع ـ أنَّه لمَّا كان العرب قبائل شتَّى متفرِّقة ومختلفة، ولكلٍّ منها لهجتها، لا يجمعها رئاسة أو ثقافة أو معتقدات موحَّدة، وكانوا أمَّة أميَّة، ندر فيهم من ألمَّ بالقراءة والكتابة، يكسوهم الجهل والانحطاط، ليس لهم كتاب أو إحاطة بعلم أو فنٍّ.. لمَّا كانوا كذلك كان مفهوم كلمات (الإله) و(الربِّ) و(العبادة) و(الدِّين) شائعًا بينهم، معروفًا لدى كلِّ امرئ منهم على حدٍّ سواء وعلى صفة معيَّنة محدَّدة، فلما نزل كتاب الله بالذِّكر المحفوظ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، مشتملًا على البيان الجليِّ والإيضاح الشَّامل، يتعبَّد الناس بتلاوته [وتدبُّره] آناء الليل وأطراف النَّهار، ويجهرون به في صلوات تقام جماعة في المساجد وغيرها، ضاعت تلك المعاني واندثرت، ولم تعد شائعة بين النَّاس بمثل ما كانت شائعة بينهم في الجاهلية؟ أيصحُّ ذلك وكتاب الله محفوظ بين المسلمين ولو قرأ أيُّهم «الفاتحة» أو ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، أو «المعوذتين»، أو سمعها لاطَّلع وعرف وأبصر ما لم يكن يعرف الجاهلي عنه شيئًا) ص٢٥.

(أمَّا وإذ جاء القول: (إن الذين ولدوا في المجتمع الإسلامي ونشأوا فيه لم يكن قد بقي لهم من معاني الكلمات (الإله) و(الربّ) و(العبادة) و(الدِّين) ما كان شائعًا في المجتمع الجاهليّ قبل نزول القرآن) بغير برهان يقوم حجَّة على صدقه وصحَّته؛ فإنّه يكون مجرَّد قول لا حجَّة، ولا يجوز اتِّباعه ولا يصحُّ أن تبنى عليه أحكام، وما سبق أن اجتزأناه من كتاب الله من آيات، شامل على معاني الألوهيَّة والربوبيَّة، والمفسِّرون ما اقتصروا قطُّ على تفسير كلمة (الرّبّ) بمعنى دون سائر المعاني التي تشملها، وإنَّما هم فسَّروا الكلمة في كلِّ موضع على المعنى الذي يدلُّ عليه السِّياق) ص٢٥.

وأعقب المؤلِّف بكثير من الآيات القرآنيَّة تجلِّي المعاني القرآنية

لكلمة (الرب) كما سرد عددًا كبيرًا من الآيات يلقي الضَّوء القويَّ على كلمتي (العبادة) و(الدِّين) ثم قال بعدما سرد قول الأستاذ المودودي الذي جاء فيه: (لما نزل القرآن في العرب وعرض على النَّاطقين بالضَّاد، كان حينئذ يعرف كلُّ امرئ منهم ما معنى (الإله) وما المراد ب (الربِّ) لأن كلمتي الإله والربِّ كانتا مستعملتين في كلامهم من قبل، وكانوا يحيطون علمًا بجميع المعاني التي تطلقان عليها، ومن ثمَّ إذا قيل لهم: لا إله إلا الله ولا ربَّ سواه ولا شريك له في ألوهيَّته وربوبيَّته، أدركوا ما دُعُوا إليه تمامًا، وتبيَّن لهم من غير ما لبس ولا إبهام أيَّ شيء هو الذي قد نفاه القائل، ومنع غير الله أن يوصف به، وأيَّ شيء قد خصَّه وأخلصه لله تعالى).

قال الأستاذ الهضيبي ردًّا على الأستاذ المودودي رحمهما الله: (فنقول ـ بعون الله ـ: إنه إن كان المقصود بهذا القول القطع بأن كلَّ فرد ممَّن كان بنجد والحجاز وغيرهما وقت بعثة الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام على وجه التَّحديد والتَّعيين، قد أدرك بغير ما لبس ولا إبهام ما دُعِي إليه، وكان على علم كامل شامل بمعنى كلمتي (الإله) و(الربِّ) وحقيقة التَّوحيد، وبالجملة: المفهوم الكامل الشَّامل لشهادة أن (لا إله إلَّا الله)، إن كان هذا هو المقصود فإنَّه يكون قولًا في حاجة لإقامة البرهان على صحَّته ولا يكفي للتَّدليل على صحَّة هذه الدَّعوى الادِّعاء بشيوع معاني كلمتي (الإله) و(الرّب) بين العرب الناطقين بالضاد.

أوَّلًا: لأنَّ الشيوع مهما بلغ واشتدَّ، معناه معرفة الكثرة الغالبة بالأمر، ولا يرقى إلى حد القطع والتيقُّن من حقيقة علم كل فرد على وجه التَّحديد والتَّعيين، فمن ذا الَّذي أحصاهم عددًا، وتأكد من حقيقة أمر كلٍّ منهم فردًا فردًا، ليجزم باستحالة أن يكون بينهم من أخطأ الفهم أو لم يصله العلم؟

ثانيًا: إن الَّذين كانوا بنجد والحجاز وغيرهما لم يكونوا كلُّهم من العرب الخلَّص العالمين باللغة العربيَّة كأهلها، بل كان فيهم بيقين كثير من المستعربين والأرقَّاء المستجلبين من نواحٍ شتَّى وأجناس مختلفة، وكان فيهم أيضًا الأحرار الأجانب الأعجميُّو اللسان، فلا يصدق في حقِّهم القول بالفهم كَفَهم النَّاطق بالضاد، ولقد حفظ لنا التَّاريخ أسماء كثيرين من صحابة رسول الله ﷺ من فارسيِّين وروميِّين وأحباش، وأشار القرآن الكريم إلى وجود هؤلاء الأجانب في مثل قوله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ دعاة لا قضاة ص٣٠.

تصوير قاتم للعالم [المسلم]:

حينما يقول الأستاذ المودودي في صراحة ودون تحفُّظ: (في القرون التي تلت ذلك العصر الزَّاهر جعلت تتبدَّل المعاني الأصليَّة الصَّحيحة لجميع تلك الكلمات، تلك المعاني التي كانت شائعة بين القوم عصر نزول القرآن) و(أنَّه قد خفي على النَّاس معظم تعاليم القرآن، بل قد غابت عنهم روحه السَّامية وفكرته المركزيَّة لمجرَّد ما غشي هذه المصطلحات الأربعة الأساسيَّة من حجب الجهل)؛ فمن الطبيعي أن يبدو له تاريخ هذه الأمَّة الماضي كلُّه سلسلة متَّصلة الحلقات من الجهل والانحطاط، وتبدو له القرون الوسطى الإسلاميَّة ـ وقد اعترف بمآثر عدد من المجدِّدين (الجانبيِّين) ظهروا خلال هذه الفترة ـ عقيمة مجدبة، نعم، قد تلمح في هذا الظلام المخيِّم على العالم الإسلاميِّ بارقة محاولات الإصلاح والتجديد في ناحية من نواحي العالم الإسلاميِّ [ولكن على نحو قول الله تعالى]: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ﴾.

إنَّ هذا الأسلوب من التفكير يصوِّر العالم الإسلاميَّ فيما بعد

عهد [النُّبوَّة][1] تصويرًا يشكِّك الشَّباب المسلم الذي لم تتسنَّ له فرصة لدراسة تاريخ [المسلمين] العلميِّ والفقهي والإصلاحيِّ والتجديديِّ دراسة عميقة واسعة ـ يشكِّكه في خلود الرسالة الإسلاميَّة، وأبديَّة صلاحية الإسلام وقدرته على صنع الرِّجال وتربية العباقرة والأبطال، وينسيهم أنَّ شجرة الإسلام لا تعرف الذويَّ والذبول، وأنها دائمة الحياة والشَّباب والاخضرار والإثمار ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾، وأنَّ خليَّة الإسلام تعسل في كلِّ حين وآن، وفي كلِّ زمان ومكان؛ فتتزعزع ثقتهم بمصير الإسلام، ويخيَّل إليهم أن تربة الإسلام لا تصلح للإنبات مهما هطلت عليها الأمطار، وصبَّ [الفقهاء] عليها جهدهم وسقوها [بخلاصة فقههم] آناء الليل والنَّهار.

قد يشعر القارئ بشيء من القسوة في هذا الحكم، ويقول: لقد بنى كلُّ المصلحين والمسلمين في الإسلام عملهم الإصلاحيَّ على نقد المجتمع الإسلامي مثل الغزالي في كتابه (الإحياء) وابن تيمية في كتابه (الرد على البكريِّ) و(الرد على الأخنائيِّ) والشيخ عبد القادر الجيلي في خطبه ومواعظه، والشيخ عبد الرَّحيم الدهلويِّ، وحفيده الشيخ إسماعيل الشهيد في كتاباتهما، ولكن لا يعزبنَّ عن البال [أن أحدًا منهم لم يقل ما قاله الأستاذ المودودي من (أنَّ الذين ولدوا في المجتمع المسلم ونشأوا فيه لم يكن قد بقي لهم من معاني (الإله والرب والعبادة والدِّين) ما كان شائعًا في المجتمع الجاهلي[2]، وأنَّ نقدهم كان موجَّهًا إلى عصرهم وبيئتهم فحسب،

(١) بعض كتاباته تشف عن أن عهد الصحابة والتابعين أيضًا لم يكن مثاليًّا بالتمام.

(٢) من أسماء من (ولدوا في المجتمع المسلم ونشئُوا فيه) وفقهوا في الدِّين =

لم يكن شاملاً للأمَّة الإسلاميَّة في جميع [قرونها] وأمصارها، وشتَّان ما بين الأسلوبين.

وكلٌّ من صدر من قلمه ما يشعر بجدب التاريخ الإسلامي وعقم الأمَّة المحمديَّة، وشيوع الظَّلام، وانتشار الانحراف والضَّلال في عالم الإسلام، يُحْمَل كلامه على التسرُّع في الحكم، ونقص الاطِّلاع على تاريخ الإصلاح والتَّجديد، ولا يستثني المؤلِّف نفسه عن التورُّط في هذا الخطأ في كتاباته المبكِّرة التي صدرت عنه قبل النُّضج الفكريِّ، والدِّراسة الاختصاصيَّة الواسعة، وقد تفطَّن لهذا في كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)، وفيه: (ولا يعزبنَّ عن البال أن الدِّين لم يزل طول هذه المدة حيًّا محفوظًا من التَّحريف والتَّبديل، مُهيبًا بالمسلمين [أن يلتزموا به]، ناعيًا عليهم انحرافهم عن طريقه، ولم يزل مناره عاليًا، وضوؤه مشرقًا ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾، ولم يزل الكتاب والسنة يبعثان في نفوس [أهلهما] ثورة على الشِّرك والبدع، وعلى الجهالة والضَّلالة، وثورة على أخلاق الجاهليَّة وعوائدها، وثورة على ترف المترفين [وإسراف المسرفين]، ولم يزل ينهض

= بخلاف ظنّ الأستاذ المودودي: عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير من الصحابة ﷺ، وابن جبير وابن المسيب والحسن البصري من التابعين ﷺ، وفي القرون الوسطى: ابن تيمية وابن القيم وابن كثير ﷺ، وفي كلّ قرن من القرون الثلاثة الأخيرة جدد الله دينه بدعوة محمد بن عبد الوهاب ودولة محمد بن سعود ونسلهما رحمهم الله جميعًا وثبّت الأحياء منهم والمقتدين بهم بعدهم. (المهذِّب).

[بفضل الله] في كلِّ [قرن من قرون] التَّاريخ الإسلاميِّ، وفي كلِّ ناحية من نواحي العالم الإسلاميِّ، رجال يقومون في هذه الأمَّة على طريقة الأنبياء، يجدِّدون لها أمر دينها.. إلخ) ص١٥١ ـ ١٥٢، ط١٠ دار الأنصار.

وقلت: (وظلَّت خليَّة الإسلام تَعْسِل في أدوار الانحطاط أيضًا، ويظهر من [العلماء والفقهاء والدعاة] أفراد [يذكِّرون] بالصحابة والسلف الصالح في سيرتهم وأخلاقهم، في دينهم وفقههم.

وكان المسلمون رغم انحرافهم عن سيرتهم الأولى وطريقهم المثاليِّ أقرب إلى [الإسلام] وأطوع لله من الأمم الجاهليَّة المعاصرة لهم. وكان وجودهم ودُوَلُهم أكبر عائق [لانتشار الجاهلية]. ص ١٥٧.

ولإزالة هذا الانطباع المستعجل ألَّفتُ كتابي: (رجال الفكر والدَّعوة في الإسلام) الذي استعرضت فيه الجهود الإصلاحيَّة التجديديَّة في تاريخ المسلمين الدِّينيِّ والاجتماعي، وذكرت كبار قادتها وزعمائها، من مختلف الطَّبقات الإسلاميَّة، والعصور التَّاريخية، وأثبت في مقدِّمته أنَّ حركة الإصلاح والتَّجديد تكاد تكون متَّصلة الحلقات لا [يخلو منها قرن من القرون].

* * *

وعندما يتحدَّث الأستاذ المودودي في مثل هذا الموضوع، يأخذه الحماس فيرخي العنان لقلمه، فيصول ويجول، ويأخذ أسلوبه الكتابي طابعًا عاطفيًّا خطابيًّا، غير الطابع العلمي الهادئ المعهود، فلندعه يؤكِّد صدق ما نقول: (إنَّ روح التَّحقيق والاجتهاد، وحريَّة الفكر والرأي، وحريَّة نشدان الحقِّ، التي خلقها النَّبي ﷺ في

أتباعه[١]، ظلَّت تعمل عملها بكلِّ قوَّة زهاء ثلاثة قرون، ثمَّ بدأ استبداد الأمراء والحكَّام، والعلماء والمشايخ يصيب منها، ثم انتزع من العقول المفكِّرة حقَّها في التفكير، ومن العيون المبصرة حقَّها في البصارة، ومن الألسن الناطقة حقَّها في النطق، وصار المسلمون يدرَّبون فعلًا على الرِّق والعبوديَّة في كلِّ مكان: في المدارس، وفي الزَّوايا، وسيطرت عليهم عبوديَّة العقل والقلب، وعبوديَّة الجسم والرُّوح، وجرَّعهم رجال المدارس كأسًا مسمومة من تقديس (الأكابر) و(العظماء) مع تقديس الله، ومسخ رجال الزَّوايا [الصوفية] طريقة السُّنّة للبيعة ووضعوا في أعناقهم غلًّا من العبوديَّة (المقدَّسة) لم يخترع الإنسان لإنسان آخر من ذي قبل غلًّا أشدَّ وأثقل منه.

وإذا بدأ النَّاس يتطامنون برؤوسهم إلى الأرض لغير الله، وإذا جعلوا يضعون إحدى يديهم فوق الأخرى أمام غير الله كالصَّلاة، وإذا أصبح النَّظر إلى الإنسان يعتبر إساءة أدب، وإذا بدأت أيدي البشر وأرجله تقبّل، وإذا أصبح الإنسان إلهًا للإنسان ومالكه ورازقه، وإذا عاد الإنسان مستبدًّا (بالأمر) و(النَّهي)، واعتبر غنيًّا عن الاستناد إلى الكتاب والسُّنة، واعتبر معصومًا من الخطايا وبريئًا من العيب والنَّقيصة، وإذا أضحى الأمر والرَّأي البشري يعدُّ واجب الامتثال والإطاعة كأمر الله تمامًا ـ في الواقع العمليِّ وإن لم يكن في الواقع الاعتقاديِّ ـ فتأكَّد أنَّ ذلك يعني التولِّي عن الدَّعوة المتمثِّلة في: ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ ولا يعود بعد ذلك أمل في تقدُّم علميٍّ

(١) حرِّيّة الفكر والرأي من مبادئ عهد الثورة الفرنسية الباغية، والمسلم مقيّد الفكر والرأي والقول والعمل بحدود شرع الله تعالى، والنبي ﷺ مخلوق لا يخلق والخالق الله وحده. (المهذِّب).

وأخلاقيٍّ وروحانيٍّ[١]، بل يؤدِّي ذلك حتميًّا إلى الزَّوال والانحطاط)[٢].

وكذلك يقول بصريح العبارة في كتابه (التَّجديد وإحياء الدِّين) وهو يستعرض محاولات الإصلاح والتَّجديد في تاريخ الإسلام، ومآثر أولئك الأعلام الذين حملوا لواءهما والخدمات المخلصة والجهود المشكورة التي قاموا بها في هذا السبيل: (نظرة عجلى على التَّاريخ تدلُّ على أنَّه لم يظهر مجدِّد ـ بمعنى الكلمة ـ بعد[٣]، وكاد عمر بن عبد العزيز أن يعتلي هذا المنصب، ولكنه لم يتمكَّن منه، وكلُّ من ظهر من بعده من رجال التجديد، اقتصروا على العمل في ناحية أو نواحٍ خاصة، ولا يزال منصب المجدِّد الكامل شاغرًا)[٤].

ظهور [المجدِّدين] القائمين بالحق:

إنَّ هذا الأسلوب من التَّفكير يتعارض مع مفهوم [ومنطوق] الأحاديث الصَّحيحة الصَّريحة التي تبشر بأن الفرصة التي أكرمت بها هذه الأمَّة للعمل في هذه الدُّنيا، سوف لا تخلو لمحة من لمحاتها كليًّا من القائمين بالحق، والمجاهدين في سبيله، وإليك طرفًا من هذه الأحاديث:

---

(١) التّعبير بكلمة (روحاني) عن الدِّين من ابتداع النصارى. (المهذِّب).

(٢) (تفهيمات) ج١ ص١٣٧ - ١٣٨ (في الأردية) توزيع المكتبة المركزية للجماعة الإسلاميَّة بالهند.

(٣) هذا الادعاء مخالف للحديث الذي رواه أبو داود والحاكم والبيهقي وصحَّحه الألباني عن أبي هريرة: «إنَّ الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها» الصحيحة (٥٩٩) وصحيح الجامع الصغير (١٨٧٥).

(٤) عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ في القرن الأول (٦١ - ١٠١)؛ فمعنى كلام المودودي أن القرن الأول احتاج إلى التجديد فلم يدركه. (المهذِّب).

«لا يزال هذا الدِّين قائمًا حتى يكون عليكم اثنا عشر خليفة..» رواه أحمد والبخاري ومسلم.

«لا يزال ناس من أمَّتي ظاهرين حتَّى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون» رواه البخاري ومسلم.

«لا يزال من أمتي أمّة قائمة بأمر الله، ما يضرُّهم من كذَّبهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك» رواه البخاري ومسلم.

«لا تزال طائفة من أمَّتي منصورين لا يضرُّهم من خذلهم حتى تقوم السَّاعة» رواه الترمذي.

«لا تزال طائفة من أمَّتي قوَّامة على أمر الله، لا يضرُّها من خالفها» رواه ابن ماجه.

«مثل أمَّتي مثل المطر لا يدرى آخره خير أم أوَّله» رواه التّرمذي.

«لا تزال طائفة من أمَّتي ظاهرين على الحق حتَّى تقوم السَّاعة» رواه الحاكم.

محاولات الإصلاح والتَّجديد مستمرة:

دراسة التَّاريخ الأمينة الواسعة العميقة تنفي فكرة الأستاذ المودودي وترفضها، وتؤكِّد أنَّ محاولات الإصلاح والتجديد، ومحاربة الجهل والوهم والخرافة، ومقاومة الحركات الهدَّامة، والتَّيَّارات المنحرفة والفتن العمياء، والوقوف في وجه الهجمات الخارجيَّة والداخليَّة على الإسلام، وتحدِّي القوى المتآمرة ضدَّ الإسلام، ومجابهة الغواية العقيديَّة والفكريَّة والشذوذ العلميِّ والأخلاقيِّ، وعمليَّة تجديد الإسلام [والعودة به إلى ما كان عليه

النبي ﷺ وأصحابه]، وعرض تعاليم الإسلام [كما فقهها الصحابة والتابعون وتابعوهم في القرون الخيِّرة] كاملة غير منقوصة خالصة غير مخدوشة، متَّصلة ومستمرَّة في تاريخ [المسلمين] دون انقطاع.

فإذا نهض هناك دارس لتاريخ المسلمين، صبور على المطالعة، واسع الأفق، دقيق الملاحظة، بعيد الهمة، تخصَّص لهذا الموضوع، وادَّعى ـ ولديه [الأدلَّة الثابتة من الوحي والفقه] ـ بأنَّ حلقات هذه السِّلسلة الذهبيَّة كلها متَّصلة بعضها ببعض، لم تنقطع منها حلقة، فلا يجوز أن نرميه بالتَّطرُّف في إحسان الظَّنِّ، وبمحاولة تخدير الأمَّة فكريًّا، وعدم وجود الوثائق التَّاريخية منسَّقة في موضوع، لا يدلُّ من قريب أو بعيد على عدم وجود الوقائع والموادِّ والشَّهادات والدَّلائل التَّاريخيَّة أصلًا، وتلك هي تجربة متكرِّرة مطَّردة في التاريخ العلمي يمرُّ بها مرَّة بعد أخرى كلُّ من يُعنى بدراسة التَّاريخ، أو يتخصَّص في هذا الموضوع، أو ينشغل به، وإذا صرفنا النَّظر عن التَّاريخ ومنطقه ولغته وأسلوبه، فإن كلمة شيخ الإسلام ابن تيمية الحكيمة:

(عدم العلم لا يستلزم عدم الوجود) تعبِّر عن حقيقة علميَّة وتسلِّط الضَّوء على الطَّريق. فإن كان هناك عالم لم يتسنَّ له الاطِّلاع على اتِّصال محاولات الإصلاح والتَّجديد، ولم تمكنه أوضاعه وملابساته ومسؤوليَّاته الخاصَّة، وتكوينه العقلي والنفسي أن يدرس هذا الموضوع دراسة اختصاص، فإنَّ ذلك لا يعني أنَّ هذه المحاولات لم تتحقق أصلًا.

التفكير [المتشائم يُنْتج اليأس]:

والتَّشكيك في صلاحية الأمَّة المسلمة للإنجاب والإنتاج وقدرة

شجرة الإسلام الطيِّبة على الإثمار، وغضِّ البصر عن كلِّ ما تحقق عبر تاريخ المسلمين الطَّويل من مآثر، أو التَّقليل من شأنه والنَّظر إلى التَّاريخ الإسلامي بالمنظار الأسود.. إنَّ هذا الأسلوب أو الخطَّة (الاستراتيجيَّة) قد استخدمها أولئك الَّذين أبوا إلّا أن يبنوا بناءهم على أنقاض [العلم والدعوة في] التَّاريخ الإسلامي، والذين [ربما] اعتقدوا أنَّ النَّاس لا يقدِّرون ما يقومون به من (تحقيق واجتهاد) ولا يتهيَّأ الجوُّ لحركتهم [وفكرهم للبروز] ما لم يثيروا الشُّبهات في الأذهان حول هذا التُّراث التَّاريخي الهائل، وما لم يرسخوا فيها ضآلته وتفاهته وعدم غنائه. ويمكن أن نضرب في ذلك مثلًا بمؤسِّسي فرق وحركات عديدة، إلَّا أنَّنا لا نؤمن أبدًا بأنَّ ما صدر من قلم الأستاذ المودودي في هذا الموضوع كان استخدامًا لهذا الأسلوب أو الخطة الاستراتيجية، لكن مهما كان ذلك عن خلوص نيَّة وحسن طويَّة، فإن نتيجته البائسة لا بد أن تتحقَّق، وذلك ما يقتضيه المنطق السليم وطبائع الأشياء.

ومن ثمَّ فإنَّ الذين يقتصرون على دراسة كتابات الأستاذ المودودي ولم يفهموا الإسلام والدَّعوة الإسلاميَّة وتعاليم الإسلام والتَّاريخ الإسلاميِّ، إلا من خلال كتاباته ومقالاته ومؤلَّفاته قد بلغ بهم اليأس من تاريخ الإسلام وماضي المسلمين ومآثرهم العمليَّة والفكريَّة حتَّى تضاءلت أمامهم الشَّخصيَّات الإسلاميَّة العملاقة [بعد عصر النُّبوَّة].

وقلَّت قيمة الجهود التي بذلت في سبيل النُّهوض بالإسلام والمسلمين وإدالة هذا الدِّين من الجاهليَّة في الماضي، وقيمة المآثر العلميَّة التي تحلَّى بها تاريخ الإسلام العلمي [والعملي] وازدانت بها المكتبة العالميَّة، وآمن كثير منهم، وصرَّح به بعضهم، أنَّ فكرة الإسلام المنسَّقة أو التَّصور الإسلامي الكامل

لم يعرض إلَّا في هذا الزَّمن الأخير عن طريق دعوة (الجماعة الإسلاميَّة) في شبه القارّة الهنديَّة وبقلم مؤسِّسها في الثلاثينات من القرن العشرين [أو بفكر الأستاذ سيّد قطب في مصر في العقد السادس من القرن نفسه].

الاقتصار على حاكميَّة (الإله) و(الرَّبِّ):

محور المصطلحات القرآنيَّة الأربعة الأساسيَّة عند الأستاذ المودودي وفكرتها المركزيَّة الأساسيَّة هي (حاكميَّة الإله والرَّب)، أمّا (الدِّين) و(العبادة) فهُما ـ فيما يراه ـ طريقان يؤدِّيان إليها، يقول، وهو يشرح مصطلح (الإله): (فخلاصة القول أنَّ أصل الألوهيَّة وجوهرها هو السُّلطة سواء أكان يعتقدها النَّاس من حيث أنَّ حكمها على هذا العالم حكم مهيمن على قوانين الطَّبيعة، أو من حيث إنَّ الإنسان في حياته الدُّنيا مطيع لأمرها وتابع لإرشادها، وأنَّ أمرها في حدِّ ذاته واجب الطَّاعة والإذعان، وهذا هو تصوُّر السُّلطة الذي يجعله القرآن الكريم أساسًا لما يأتي به من البراهين والحجج على إنكار ألوهيَّة غير الله وإثبات الألوهيَّة لله تعالى وحده)[1].

[ومشى سيد قطب على هذا النهج في كتابه: في ظلال القرآن ص١٠٠٥ و١٠٠٦ و١٨٥٢ و٢٧٠٧ و٤٠١٠، وغيرها].

ويقول بعدما يقدِّم آيات قرآنية كثيرة [للتدليل] على دعواه: (ففي جميع هذه الآيات من أولها إلى آخرها لا تجد إلا فكرة رئيسيَّة واحدة، ألا وهي أنَّ كلًّا من الألوهيَّة والسُّلطة تستلزم الأخرى، وأنه لا فرق بينهما من حيث المعنى والرُّوح، فالذي لا

(١) (المصطلحات الأربعة في القرآن) ص٢٣.

سلطة له، لا يمكن أن يكون إلهًا، ولا ينبغي أن يتخذ إلهًا، وأما من يملك السُّلطة فهو الذي يجوز أن يكون إلهًا، وهو وحده ينبغي أن يُتَّخذ إلهًا، ذلك بأنَّ جميع حاجات المرء التي تتعلَّق بالإله أو التي يضطرُّ المرء لأجلها أن يتَّخذ أحدًا إلهًا له، لا يمكن قضاء شيء منها من دون وجود السُّلطة. ولذلك لا معنى لألوهيَّة من لا سلطة له، فإنَّ ذلك أيضًا مخالف للحقيقة، ومن النَّفخ في الرماد أن يرجع إليه المرء ويرجو منه شيئًا) ص٢٩.

ويقول في سياق تفسيره لكلمتي: (الربِّ) و(الربوبيَّة): (فبقراءة هذه الآيات بالتَّرتيب الذي سردناها به، يتبيَّن للقارئ أنَّ القرآن يجعل (الربوبيَّة) مترادفة مع (الحاكميَّة والملكيَّة) ص٩٣.

إنَّه يصرِّح بأنَّ حقيقة الرَّبِّ هي السُّلطة العليا، والعبادة والعبوديَّة عبارة عن طاعة هذه السُّلطة[1] وامتثال أمرها والإذعان التامِّ لها، والنبيُّ هو النائب والممثل عن هذا السُّلطان الأعلى، ويجب أن يطيعه النَّاس بوصفه هذا وحده، والبشر هم رعيَّة مالك الملك، الذين يجب عليهم أن يخلصوا له العبادة والعبوديَّة والخضوع والإذعان. يقول في صميم الأسلوب السِّياسيِّ في معرض التَّفسير لوصيَّة عيسى ـ عليه وعلى نبيّنا الصَّلاة والسّلام ـ المتمثِّلة في هذه الآية ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ (يظهر من هذا أنَّ دعوة عيسى عليه الصَّلاة والسَّلام كانت تعتمد

(١) وهذه الدعوى الخاطئة الخطيرة هي من أكبر الدوافع لتأليف الأستاذ الندوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الكتاب (التفسير السياسي للإسلام)، وأكبر دافع للأستاذ عبد الحق التركماني لإعادة نشره ـ بعد فقده ـ وأكبر دافع لمهذِّبه لتهذيبه وطبعه وتوزيعه، بعد أن رأى الثلاثة سوء عاقبة هذا الانحراف الفكري الموصوف بالإسلامي. (المهذِّب).

على ثلاثة أصول، مثلها مثل دعوة الأنبياء طُرًّا:

الأوَّل: التَّسليم بأنَّ لله وحده السُّلطة العليا التي يختار المرء سبيل (العبديَّة) أمامها، ويقوم على طاعتها كلُّ النِّظام الاجتماعيِّ والأخلاقيِّ.

الثاني: طاعة أحكام النَّبيِّ بوصفه نائبًا عن هذا السُّلطان الأعلى.

الثالث: أنَّ القانون الذي يضع حدود وقيود التَّحريم والتَّحليل هو قانون الله فحسب، أما قوانين الآخرين المفروضة فرضًا فباطلة مردودة.

فليس من فرق إذن ـ ولو قيد شعرة ـ بين مهمَّة ودعوة رسل الله: عيسى وموسى ومحمَّد وغيرهم من الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسَّلام، ويخطئ من يقرّ لكلٍّ واحد منهم بمهمَّة ودعوة مختلفة باختلاف شخصه، ويفرِّق بينهم في الغرض والنَّوع.

إنَّ من يأمره مالك الملك بالذَّهاب إلى رعيته لدعوتهم لا يمكن أن يكون الغرض من مجيئه شيئًا آخر سوى منعهم من العصيان والتحرُّر والاستقلال المطلق وكفِّهم عن الشِّرك (يعني أن يشركوا آخرين مالك الملك في السُّلطة العليا بأيِّ شكل من الأشكال) ودعوتهم إلى الإذعان التَّام والعبوديَّة الخالصة والطَّاعة والعبادة للمالك الأصليِّ)[1].

ويقرِّر في معرض الحديث عن السُّلطة والحاكميَّة واتِّحادهما أنَّ

(١) (تفهيم القرآن) (تعريب أحمد إدريس) ج١ ص٢١٧، ط١ عام ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م، توزيع: دار القلم بالكويت.

اعتقاد أمر كائن من دون الله واجب الإطاعة، والشِّرك مع الله، شيء واحد لا فرق بينهما، يقول: (والحكم والسُّلطة لا يقبل شيء منهما التَّجزئة والتَّقسيم البتَّة، فالَّذي يعتقد أنَّ أمر كائن ما من دون الله مما يجب إطاعته والإذعان له بغير سلطان من عند الله، فإنَّه يأتي من الشِّرك بمثل ما يأتي به الَّذي يدعو غير الله ويسأله، وكذلك الَّذي يدَّعي أنَّه مالك الملك والمسيطر القاهر، والحاكم المطلق بالمعاني السِّياسيَّة، فإنَّ دعواه هذه كدعوى الألوهيَّة ممَّن ينادي بالنَّاس: (إنِّي وليُّكم وكفيلكم وحاميكم وناصركم) ويريد بكلِّ ذلك المعاني الخارجة عن نطاق السُّنن الطبيعيَّة، ألم تر أنه بينما جاء في القرآن أنَّ الله تعالى لا شريك له في الخلق وتقدير الأشياء وتدبير نظام العالم، جاء معه أنَّ الله الحكم وله الملك[١] ليس له شريك في أيٍّ منهما، مما يدلُّ دلالة واضحة على أن الألوهيَّة تشتمل على معاني الحكم والملك أيضًا، وأنه مما يستلزمه توحيد الإله ألَّا يشرك بالله تعالى في هذه المعاني كذلك)[٢].

التَّصريحات المماثلة لدى سيّد قطب:

وقد أعجب الكاتب الإسلاميُّ الأستاذ سيد قطب إعجابًا شديدًا بكتاب الأستاذ المودودي (المصطلحات الأربعة في القرآن) ووافقه كلَّ الموافقة في الآراء والأفكار التي يتضمَّنها، وقد جعل (الحاكميَّة) أخصَّ خصائص الألوهيَّة، وكتاباته تقلِّل من شناعة

(١) الخلق والحكم والملك من صفات الله تعالى، والعبودية من صفات العبد خالصة لخالقه، ولكن المودودي وسيد قطب ومن اتبعهما تجاوز الله عنهم يخلطون بين هذه وهذه لضعف الفقه. (المهذِّب).

(٢) (المصطلحات الأربعة في القرآن) ص٣١، ٣٢.

عبادة الأصنام والأوثان وعبادة غير الله في الجاهليَّة، لأنه يعتبرها صورة ساذجة بدائيَّة للجاهليَّة الأولى؛ يقول في كتابه الشهير (معالم في الطريق):

(هذه الجاهليَّة تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله في الأرض وعلى أخصِّ خصائص الألوهيَّة ـ وهي الحاكمية ـ إنَّها تسند الحاكميَّة إلى البشر، فتجعل بعضهم لبعض أربابًا، لا في الصُّورة البدائية الساذجة التي عرفتها الجاهليَّة الأولى، ولكن في صورة ادِّعاء حقِّ وضع التصوُّرات والقيم، والشرائع والقوانين، والأنظمة والأوضاع، بمعزل عن منهج الله، وفيما لم يأذن به الله)[1].

إنه يعبِّر عن الأخذ بالقوانين الموضوعة على يد البشر، والخضوع لحكم البشر، وقبول التشريع غير الإلهي، بـ (العبادة)، يقول في نفس الكتاب فيما بعد هذه السُّطور:

(فالنَّاس في كلِّ نظام غير النِّظام الإسلاميِّ يعبد بعضهم بعضًا ـ في صورة من الصُّور ـ وفي المنهج الإسلامي وحده يتحرر النَّاس جميعًا من عبادة بعضهم لبعض، بعبادة الله وحده، والتَّلقِّي من الله وحده، والخضوع لله وحده) ص٩ ـ ١٠.

ويقول وهو يتحدَّث عن العرب الذين خاطبهم القرآن مباشرةً: (كانوا يعرفون أن الألوهيَّة تعني الحاكميَّة العليا، وكانوا يعرفون أنَّ توحيد الألوهيَّة وإفراد الله سبحانه بها، معناه نزع السُّلطان الذي يزاوله الكهَّان ومشيخة القبائل والأمراء والحكَّام، وردُّه كلّه إلى الله) ص٢٨.

ويقول في صراحة أكثر وعبارة أوضح: (كانوا يعلمون أنَّ

(١) (معالم في الطريق) ص٩، طبع وتوزيع: دار دمشق.

(لا إله إلا الله) ثورة على السُّلطان الأرضي الذي يغتصب أولى خصائص الألوهيَّة، وثورة على الأوضاع التي تقوم على قاعدة من هذا الاغتصاب، وخروج على السُّلطات التي تحكم بشريعة من عندها لم يأذن بها الله) ص٢٨.

ويتناول كلمة (لا إله إلا الله) بالشرح والإيضاح، فيقول: (لا إله إلا الله ـ كما يدركها العربي العارف بمدلولات لغته ـ لا حاكميَّة إلا لله، ولا شريعة إلا من الله، ولا سلطان لأحد على أحد؛ لأن السُّلطان كلَّه لله) ص٣١.

ولا يفهم سيد قطب مِنْ (لا إله إلا الله) إلا ردَّ الحاكميَّة في كلِّ الأمور إلى الله وإفراده بهذه الحاكميَّة؛ يقول في موضع من هذا الكتاب ـ وهو يوصي أصحاب الدعوة الإسلاميَّة بأن يعرِّفوا أولئك الذين يسمّون أنفسهم مسلمين أو تشهد لهم شهادات الميلاد بأنَّهم مسلمون ـ بالإسلام الحقيقيِّ: (يجب أن يعلِّموهم أنَّ الإسلام هو ـ أوَّلًا ـ إقرار عقيدة (لا إله إلا الله) بمدلولها الحقيقيِّ، وهو ردُّ الحاكميَّة لله في أمرهم كله، وطرد المعتدين على سلطان الله بادِّعاء هذا الحقِّ لأنفسهم)، ص٤٦.

ويقول في موضع آخر: (إنَّ إعلان ربوبيَّة الله وحده للعالمين، معناها: الثَّورة الشَّاملة على حاكميَّة البشر في كلِّ صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها، والتَّمرد الكامل على كلِّ وضع في أرجاء الأرض، الحكم فيه للبشر في صورة من الصُّور، أو بتعبير آخر مرادف: الألوهيَّة فيه للبشر في صورة من الصُّور)، ص٨١.

ومن يجعل (الحاكميَّة) أخصَّ خصائص (الألوهيَّة) وفكرتها المركزيَّة، فإنه يعتبر التَّحاكم إلى قانون من القوانين البشريَّة، في أيِّ شأن من شؤون الحياة، مخالفة للدِّين، وإشراكًا في الحاكميَّة.

الذي يرادف عنده الإشراك في الألوهيَّة أو الربوبيَّة.

ويقول سيِّد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه (في ظلال القرآن) عند الكلام على قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ من سورة «يوسف»: (وهذا وحده هو الدِّين القيِّم، فلا دين ـ إذن ـ لله ما لم تكن دينونة النَّاس لله وحده، وما لم يكن الحكم لله وحده، ولا عبادة لله إذا دان النَّاس لغير الله في شأن واحد من شؤون الحياة، فتوحيد الألوهيَّة يقتضي توحيد الربوبيَّة والربوبيَّة تتمثَّل في أن يكون الحكم لله، أو أن تكون العبادة لله، فهما مترادفان أو متلازمان، والعبادة الَّتي يعتبر بها النَّاس مسلمين أو غير مسلمين، هي الدَّينونة والخضوع والاتِّباع لحكم الله دون سواه. وهذا التقرير القرآنيّ بصورته هذه الجازمة ينهي كلّ جدل في اعتبار الناس في أي زمان وفي أي مكان، مسلمين أو غير مسلمين؛ في هذا الدِّين القيِّم أم في غير هذا الدِّين. فهذا الاعتبار يعدُّ من المعلوم من الدِّين بالضَّرورة، من دان لغير الله، وحكَّم في أيِّ أمر من أمور حياته غير الله فليس من المسلمين، وليس في هذا الدِّين، ومن أفرد الله سبحانه بالحاكميَّة ورفض الدَّينونة لغيره من خلائقه، فهو من المسلمين وفي هذا الدِّين)، ص١٩٦٤ ـ دار الشروق.

ويقول في عبارة صريحة لا تقبل تأويلًا ولا تدع مجالًا للنِّقاش، وهو يتحدَّث عن الهدف الأساسيِّ الجذريِّ الذي استهدفته الدَّعوة النَّبويَّة على مدار التَّاريخ البشريِّ: (ولم يكن الناس ـ فيما عدا أفرادًا معدودين في فترات قصيرة ـ ينكرون مبدأ الألوهيَّة ويجحدون وجود الله البتَّة، إنَّما هم كانوا يخطئون معرفة حقيقة ربِّهم الحقَّ، أو يشركون مع الله آلهة أخرى... إما في صورة الاعتقاد والعبادة، وإمَّا في صورة الحاكميَّة والاتِّباع، وكلاهما شرك كالآخر يخرج به الناس من دين الله) معالم في الطريق ص٢١.

[بل قال سيد قطب تجاوز الله عنه (بعد الكلام عن شرك الرقى والتمائم وشرك الرّياء الخفي): (وهناك الشرك الواضح الظاهر، وهو الدَّينونة لغير الله في شأن من شؤون الحياة)، وذكر من أنواعه: (الدّينونة في تقليد من التقاليد كاتخاذ أعياد ومواسم يشرعها الناس ولم يشرعها الله، والدّينونة في زيٍّ من الأزياء يخالف ما أمر الله به من السّتر ويكشف أو يحدِّد العورات التي نصَّت شريعة الله أن تستر) في ظلال القرآن ص٢٠٣٣، ط.دار الشروق.

وقال سيّد قطب عن مشركي قريش وشركهم: (كان مبلغ تصوُّرهم [للأصنام] مجرد شفعاء عند الله... وما كان شركهم الحقيقي من هذه الجهة، ولا كان إسلام من أسلم منهم متمثِّلًا في مجرد التخلِّي عن الاستشفاع بهذه الأصنام... والذين لا يُفرِدون الله سبحانه بالحاكميَّة ـ في أي زمان أو مكان ـ هم مشركون، لا يخرجهم من هذا الشرك أن يكون اعتقادهم أن لا إله إلا الله مجرد اعتقاد، ولا أن يقدموا الشعائر لله وحده) في ظلال القرآن ١٤٩٢ ط.دار الشروق.

وقال سيد قطب تجاوز الله عنه بعد أن نقل خطبًا منسوبة بلا سند لمعاوية (آخر الخلفاء من الصحابة رضي الله عنهم جميعًا) وللمنصور في القرن الثاني الخيِّر (ثاني الخلفاء العباسيِّين رحمهم الله): (وبذلك خرجت سياسة الحكم نهائيًّا عن دائرة الإسلام وتعاليم الإسلام) العدالة الاجتماعية بعد التعديل ص١٦٧ - ١٦٨ ط.دار الشروق ١٤١٥.

وقال تجاوز الله عنه عن سياسة المال في عهد عثمان رضي الله عنه: (فأما في حياة محمد ﷺ وصاحبيه وفي خلافة علي بن أبي طالب فكانت النظرة السَّائدة هي النظرة الإسلاميَّة... وأمّا حين انحرف هذا التصور في عهد عثمان قليلًا فقد بقيت للناس حقوقهم وفهم الخليفة

أنه في حلّ ـ وقد اتسع المال عن المقررات للناس ـ أن يطلق فيه يده يبرّ أهله ومن يرى من غيرهم حسب تقديره) في ظلال القرآن ص١٦٨ ط. دار الشروق ١٤١٥. ولم يقل سيّد من حرّم ذلك وهي السنة النّبويَّة؟

ثم قال: (وأمّا حين صار الحكم إلى الملك العضوض [أي منذ الأمويين في القرن الأول] فقد انهارت الحدود والقيود، وخرج الحكَّام بذلك نهائيًّا من كلِّ حدود الإسلام في المال)، المصدر نفسه.

ثم بدا لسيد قطب تجاوز الله عنه أنّ الانحراف في سياسة المال (بدأ صغيرًا بإيثار بعض المسلمين على بعض في العطاء في أيام عمر... ثم فشا فشوًّا ذريعًا... بما أباحه عثمان من شراء الأرضين في الأقاليم) العدالة الاجتماعية ص١٧٥. ولم يقل سيِّد مَن حرّم شراء الأرضين في الأقاليم وقد أباحه الله؟

ومثّل على (تضخم فاحش في الثروات) زعم أنّه (يحطم الأسس التي جاء هذا الدِّين ليقيمها بين الناس) بثمانية من كبار الصحابة خمسة منهم من المبشَّرين بالجنة وعلى رأسهم عثمان بن عفان رضي الله عنهم جميعًا وأرضاهم، [انظر العدالة الاجتماعية ص١٧٥ ط.دار الشروق علم ١٤١٥] بعد التعديل الذي اضطره إليه الأستاذ محمود بن محمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره.

مغالاة والرد عليها:

ظهرت في مصر فئة تأثَّرت بهذا الفكر وتطرَّفَتْ في التَّمسُّك بهذا التَّفسير العصريِّ للدِّين والعمل بمقتضاه، مما اضطرَّ الأستاذ الهضيبي رَحِمَهُ اللَّهُ إلى نقدها ومحاولة الحدِّ من شدَّتها ووضع الأمور

في نصابها، فقال بعدما سرد تفسير الأستاذ المودودي لفكرته عن (حاكميَّة الإله): (وقد توهَّم البعض أن قائل تلك المقالة يرى استحالة أن يأذن الله تعالى للنَّاس أن يضعوا لأنفسهم بعض التَّنظيمات أو التَّشريعات التي تنظِّم جانبًا من شؤون حياتهم) دعاة لا قضاة ص٧٢.

ثمَّ يقول الأستاذ الهضيبي: (والحقُّ أنَّ الله عزَّ وجلَّ لقد ترك لنا كثيرًا من أمور دنيانا، ننظّمها حسبما تهدينا إليه عقولنا في إطار مقاصد عامَّة وغايات حدَّدها لنا وأمرنا بتحقيقها، وبشرط أن لا نُحِلَّ حرامًا أو نحرِّم حلالًا، ذلك أنَّ الأفعال في الشَّريعة إمَّا فرض أو حرام أو مباح.

والفرض: الذي فرضه الله علينا واجب لا يملك إنسان أن يقرِّر عدم وجوبه أو يقبل منه، وفاعل ذلك بعد أن بلغه الحقُّ وقامت عليه الحجَّة، جاحد للنَّصِّ مكذِّب لربِّه تعالى، فهو كافر مشرك بلا جدال.

وما حرَّمه الله تعالى: حرام إلى يوم القيامة لا يملك أحد أن يحلَّه، وفاعل ذلك بعد بلوغ الحقِّ إليه وقيام الحجَّة عليه جاحد للنّصِّ، مكذِّب لربِّه، فهو كافر مشرك بلا جدال.

أمَّا المباحات: فإنَّ للمسلمين أن يسنُّوا فيها من الأنظمة ـ التي قد تتَّخذ شكل قرار أو لائحة أو قانون ـ ما تقتضيه الحاجة تنفيذًا لنصوص وردت بضرورة تحقيق مقاصد عامَّة، ومن هذا القبيل قوانين تنظيم الشُّورى التي أمر الله تعالى بها: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾، وأيضًا قوانين تنظيم المرور في الشَّوارع العامَّة وقوانين الوقاية الصِّحيَّة، وقوانين مقاومة الآفات الزِّراعيَّة وتنظيم استعمال مياه الرَّيِّ، وقوانين التَّعليم، وقوانين تنظيم المهن

المختلفة، كالطِّبِّ والهندسة والصَّيدلة وتحديد الشُّروط التي يجب أن تتوافر فيمن يزاولها، وقوانين تنظيم الإدارات والمصالح وتحديد اختصاصاتها وسلطات كلٍّ منها، وتنظيم الجيش وتحديد الشُّروط التي يجب توافرها فيمن يلحق به، وقوانين شروط بناء المساكن بما يحقِّق سلامتها وتوافر الشُّروط الصِّحيَّة فيها، والقوانين المتعلِّقة بالشُّروط اللَّازم توافرها في المصانع المختلفة، حسب طبيعة العمل فيها، وقوانين تنظيم المحالِّ العامَّة... إلخ.

ولنضرب مثلًا بقوانين تنظيم المرور في الشوارع العامَّة، فإنَّ الحديث الثَّابت عن رسول الله ﷺ الَّذي يقول فيه: «إنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم عليكم حرام» والحديث الثَّابت عنه ﷺ الَّذي يقول فيه: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» قد فهمنا منهما وجوب المحافظة على دمائنا وأبشارنا وأعراضنا، وألَّا يسلم أحدنا الآخر لما فيه هلاكه أو الإضرار به، ووجدنا أنَّنا لو تركنا أمر السَّير في الطرقات العامَّة بالمركبات والسَّيَّارات والدَّرَّاجات وغيرها من وسائل النَّقل من غير تنظيم وقواعد يلتزم بها الكلُّ، وتكفل سلامة الأموال والأبدان، فإنَّنا نكون قد عرَّضنا دماء النَّاس وأبشارهم وأموالهم للإهدار، وأسلمناهم بذلك لما فيه هلاكهم والإضرار المحقَّق بهم.

ولا يجوز لأحد أن يزعم أنَّ تشريعات تنظيم المرور في هذه الحالة من تشريع الله تعالى، إنما هي من تشريعنا واجتهادنا تنفيذًا لمقصد عامٍّ أمرنا الله به، وهي تشريعات وقوانين تتبدَّل وتتغيَّر حسبما تقتضيه الحاجة بتغيُّر وسائل المواصلات) دعاة لا قضاة ص٧٣ - ٧٤.

ثم يقول: (وفي هذا كفاية لإبطال قول من زعم أنَّ (التشريع

[الدنيوي] صفة من صفات الله عزَّ وجلَّ، وأن من وضع تشريعًا [دنيويًّا] فقد انتزع لنفسه إحدى صفات الله عزَّ وجلَّ، وجعل نفسه ندًّا الله تعالى خارجًا على سلطانه) دعاة لا قضاة ص٧٤.

وهو يلوِّح بأنَّ الأمر قد تجاوز حدَّه وتفاقم شرُّه، وأصبح النَّاس يعتبرون المسلمين الَّذين اتَّبعوا أيَّ قانون بشريٍّ من أيِّ نوع كان، مارقين من الدِّين، وأصبح هناك أناس ينادون بأنَّ المسلمين المعاصرين يعيشون في جاهليَّة وكفر، وأنَّ عقائدهم باطلة لا تمتُّ إلى العقيدة الإسلاميَّة بصلة ما، لأنَّهم جاهلون لمعظم القوانين الإلهيَّة التي تنظِّم حياتهم السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة، وأنَّ أكثريَّتهم أصبحت تعتقد أنَّ أحكام الشريعة الإلهيَّة محصورة في نطاق العبادات... يقول الأستاذ الهضيبي مفنِّدًا هذا الرَّأي الخاطئ: (اعتقاد عامَّة النَّاس أن لأولي الأمر حقَّ إصدار القوانين ووضع التَّنظيمات التي تنظِّم جوانب من حياتهم السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة، بناءً على نصوص من القرآن الكريم والسُّنّة الشَّريفة، اعتقاد ليس فيه أيضًا شبهة الكفر والشِّرك؛ بل هو اعتقاد في أصله حقٌّ) ص٧٩.

هل [العبودية] هي صلة الحاكم والمحكوم فحسب؟

نقف هنا وقفة قصيرة ونستعرض بعض ما تدلُّ عليه دراسة كتاب الأستاذ المودودي (المصطلحات الأربعة في القرآن) والشيء الكثير من كتاباته، من أنَّ الصِّلة بين الله والإنسان وبين العبد والربِّ، هي في الواقع صلة الحاكم والمحكوم، وصلة الرعيَّة والملك، وأن صفة (السُّلطة العليا)، و(الحاكميَّة المطلقة) هي الأصل من بين أسماء الله الحسنى وصفاته السامية الكثيرة، وكأنَّ الدَّعوة إلى إيمان بحاكميَّة الإله والإذعان لسلطته العليا وصوغ الحياة في قالب متطلَّباتها، كان هدف النُّبوَّة الأساسيِّ ومقصد بعثة الأنبياء

وأساس دعوتهم وغاية نزول الكتب والصحف السماويَّة كلها.

ومهما كان ذلك نتيجة لازمة للإيمان بالله والدُّخول في حظيرة الإسلام، ومهما كانت طبيعة الإسلام تقتضيه اقتضاءًا طبيعيًّا، فإنه جزء صغير بالنِّسبة إلى صفات الله وذاته، وصلته بعباده وصلة عباده بنفسه، وليس هو كلُّ شيء كما يظنُّه هؤلاء [الكتَّاب]. والواقع أنَّ صلة الخالق والمخلوق والعبد والمعبود هي أشمل وأوسع، وأعمق وأدق بكثير من صلة الحاكم والمحكوم، والآمر والمأمور، والسُّلطان والرعيَّة، وقد لهج القرآن الكريم بذكر أسماء الله وصفاته في بسط وتفصيل وأسلوب شيِّق جميل، لا يدلَّان أبدًا على أنَّ المطلوب من العبد هو الإيمان بمجرَّد حاكميَّته المطلقة والإذعان لسلطته العليا، وأن لا يشرك آخرين معه في سلطته، اقرأ على سبيل المثال الآيات التالية من أواخر سورة «الحشر»: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

مقتضى الأسماء والصِّفات والأفعال الإلهيَّة:

إنَّ الأسماء والصِّفات والأفعال الإلهيَّة التي زخر القرآن الكريم بذكرها؛ تتطلَّب أن يحبَّ العبد إلهه وربَّه بقلبه وقالبه، [وأن يطيع أوامره ويجتنب نواهيه فيعبده وحده]، وأن يتفانى في طلب رضاه، وأن يتغنَّى بمجده ويسبِّح بحمده، وأن يلهج بذكره قيامًا وقعودًا، وأن يكون ذلك هو شغله الشاغل وهمَّه [الأوَّل والأعظم]، وأن يظلَّ خائفًا منه، فزعًا من بطشه وقهره، وَجِلًا من غضبه وسطوته، ملتجئًا إليه في كلِّ حال، [داعيًا الله وحده]، مادًّا إليه يد السُّؤال، متضرِّعًا

إليه بإلحاح وإقبال، تملكه عاطفة البذل في سبيله بكلِّ ما عنده من نفسه ونفيس، وغالٍ ورخيص.

والَّذين حصروا صفات الله وحقوقه، في حقِّ الحاكميَّة والسُّلطة العليا وحده، ورأوا هذا الحقَّ أصل الحقوق الإلهيَّة، وأوَّل المطالب الربَّانية، أخاف أن يكون قد صدق عليهم قول الربِّ تبارك وتعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾، إنَّ [الله تعالى في كتابه الكريم قد اختار] التَّفصيل والتَّوسع في ذكر الصِّفات وإثباتها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (النبوات): (إنَّ أسلوب القرآن المجيد هو النَّفي المجمل والإثبات المفصَّل)[1]، لقد اكتفى الله تعالى في النَّفي بقوله القاطع: [(لا إله إلا الله)]، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾، أمَّا في الإثبات فيختار ذلك الأسلوب التفصيليَّ العجيب الذي مرَّ مثاله مقتبسًا من سورة «الحشر»، وذلك لأن [معرفة صفات الله تعالى كما وردت في القرآن والسُّنّة بلا تأويل يخرجها عن معناها في العربية ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل]، والإحاطة بها إحاطة شاملة يزيد قلب العبد إيمانًا ويقينًا بالله وبكتبه وبرسله وبملائكته وباليوم الآخر، وبالحساب وبالجنة والنار، وبقضاء الله وقدره، ويثبته على طاعته وأداء فرائضه وتجنب محرماته، والسعي إلى رضاه بالنوافل وترك المكروهات والحب في الله والبغض فيه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، و[الدعوة إلى إفراد الله بالعبادة ونفيها عن غيره، والتزام السنة ومحاربة البدعة].

[وأصحاب رسول الله ﷺ] لم يكونوا يؤمنون بالله [على أنه]

(١) راجع كتاب (النبوات) لابن تيمية.

كالحاكم الأعلى والسُّلطان الأعم فحسب، بل [مع ذلك وفوقه يؤمنون بأنه وحده المستحقّ للعبادة وأنهم إنما خلقهم الله تعالى لعبادته كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾، وما أرسل رسله في أي مكان أو زمان إلَّا بذلك؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

[العبودية في فقه] شيخ الإسلام ابن تيمية:

هذا شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو في مكانته من [الفقه في دين الله]، والتضلُّع من علوم الكتاب والسنة والبعد عن كلِّ ما أُحْدِث بعد القرون الأولى، لا يرى الطَّاعة والتذلُّل وحدهما يوفيان حقَّ العبوديَّة [العليا] التي هي حقُّ الله وحده، تلك الطَّاعة والتَّذلُّل اللَّذان يمارسهما الإنسان لكلّ من يعتقد في سلطته وحاكميَّته، ويرضى بهما ذلك الحاكم والسلطان؛ بل يشترط في عبودية الله وحده بالإضافة إلى الخضوع والتَّذلُّل: غاية الحبِّ الَّتي تتطلَّب ـ بجانب الحاكميَّة والسُّلطة ـ صفات [عليا] تجعل السُّلطان الأعلى والحاكم على الإطلاق يستحقُّ أن يكون موضع غاية الحبِّ في نظر (العبد) و(العابد)؛ يقول في رسالته الشَّهيرة (العبوديَّة): (لكنَّ العبادة المأمور بها تتضمَّن معنى الذُّلِّ ومعنى الحبِّ، فهي تتضمَّن غاية الذُّلِّ لله تعالى، بغاية المحبَّة له)[1].

ويقول: (من خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابدًا له، ولو أحبَّ شيئًا ولم يخضع له، لم يكن عابدًا له، كما قد يحب الرجل ولده وصديقه، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى،

(١) (العبوديَّة) لشيخ الإسلام ابن تيمية، طبع وتوزيع: المكتب الإسلامي ١٩٦٣م، ص٦.

بل يجب أن يكون الله أحبَّ إلى العبد من كلِّ شيء وأن يكون الله أعظم عنده من كلِّ شيء)، ص٧.

ولا يكتفي بهذا القدر، بل يقول وهو يشرح كلمة (الإله) ويشير إلى اشتقاقها: (الإله هو الذي يألهه القلب بكمال الحبِّ والتَّعظيم، والإجلال والإكرام، والخوف والرَّجاء، ونحو ذلك) ص١٣.

وتدلُّ عبارته التالية دلالة صريحة على أنَّ الصلة بين (العبد والمعبود) ليست هي صلة (الحاكم والمحكوم) وحدها، بل الأُولى أوسع من الثَّانية بدرجات كثيرة، وأجمع وأشمل، فهي تشمل المعرفة والإنابة والمحبَّة والإخلاص والذِّكر، وما إلى ذلك، على حين يكفي للحاكم مجرَّد الخضوع والتَّذلُّل، والطَّاعة والانقياد؛ يقول: (إنَّ الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته، والإنابة إليه ومحبَّته، والإخلاص له، فبذكره تطمئنُّ قلوبهم، وبرؤيته في الآخرة تقرُّ عيونهم، ولا شيء يعطيهم في الآخرة أحبّ إليهم من النَّظر إليه، ولا شيء يعطيهم في الدُّنيا أعظم من الإيمان به) مجموع الفتاوى ج١ ص٢٣.

ويقول: (ولا صلاح لهم ولا فلاح، ولا نعيم ولا لذَّة، بدون ذلك [التّعبُّد] بحال، بل من أعرض عن ذكر ربِّه، فإنَّ له معيشة ضنكًا ويحشره يوم القيامة أعمى) ج١ ص٢٣.

ما أعظم الفرق وأعمقه بين تعريف الإله هذا، وبين التَّعريف الذي يجعل الحاكميَّة والسلطة العليا ـ التي ترجمها الأستاذ المودودي نفسه بـ: (Sovereign) ـ ملاك الأمر في باب الألوهيَّة، وإذًا فمن الواضح أن هذا (الإله الرسمي) لا يحتاج الإنسان بصدده إلى الحبِّ ولا الإكثار من الذِّكر، بل يكفيه مجرَّد الطَّاعة الكاملة والولاء (Loyalty).

الدَّعوة إلى [إفراد الله بالعبادة ونفيها عن غيره رسالة كل رسول]

يقول الأستاذ المودودي، وهو يقرِّر أن الحكم والسُّلطة لا يقبل شيء منهما التَّجزئة والتَّقسيم: (فالَّذي يعتقد أنَّ أمر كائن ما من دون الله ممَّا يجب إطاعته والإذعان له، بغير سلطان من عند الله، فإنه يأتي من الشِّرك بمثل ما يأتي به الذي يدعو غير الله ويسأله وكذلك الذي يدَّعي أنه مالك الملك والمسيطر القاهر، والحاكم المطلق بالمعاني السِّياسيَّة، فإنَّ دعواه هذه كدعوى الألوهيَّة ممَّن ينادي بالنَّاس: (إنِّي وليُّكم وكفيلكم وحاميكم وناصركم، ويريد بكل ذلك المعاني الخارجة عن نطاق السُّنن الطَّبيعيَّة) المصطلحات القرآنية الأربعة ص٣١، ٣٢.

إنَّ هذه العبارة تنمُّ عن أنَّ الإشراك في الحكم، والإشراك في الألوهيَّة أو العبادة، يتساويان ولا يتفاضلان، بل إنَّهما شيء واحد، وأن طاعة أحد والخضوع لحكمه بالمعاني السِّياسيَّة شرك، كشرك من يعبد أحدًا غير الله ويتقدَّم إليه بالدُّعاء، ويتقرَّب إليه بالنَّذر والذَّبح، والخوف والرَّجاء...

ويبدو أنَّ المودودي [وسيّد قطب وأتباعهما] لا يعنيهم [في الاعتقاد] إلَّا [قضيّة] الطَّاعة السِّياسيَّة لأحد [من البشر]، والخضوع

لسلطانه والإذعان لحاكميَّته [والعمل بتشريعه ولو دنيويًّا]، وعلى ذلك تتركَّز جهودهم [الفكرية] و[جهادهم القلمي] محاولاته القلميَّة، ومن يقصر مطالعته على هذه المقالات والكتابات وحدها، ويعيش فيها ويتنفس في جوِّها، ويتغذَّى بها عقليًّا وفكريًّا، تتأكَّد في نفسه أوَّليَّة الإشراك في الحكم وأهمِّيَّته وتتضاءل عنده شناعة الإشراك في العبادة، إذا لم يكن له نصيب من تعليم دينيٍّ قائم على أساس الكتاب والسنة ولم تفعل فيه العوامل والمؤثِّرات الثَّقافية والتَّربويَّة الأخرى. و[يتضاءل عنده] الاعتقاد في أحد بأنَّه موضع العبادة والاستعانة، والتَّضرُّع والدُّعاء، أو السُّجود والخضوع، وما إلى ذلك من مظاهر غاية التَّعظيم والتَّقديس، أو يرى أنَّ ذلك كلَّه من خصائص الجاهليَّة القديمة البدائيَّة حيث كان العقل البشريُّ في مرحلة الطُّفولة، وكان العلم والثَّقافة والمدنيَّة لا تزال في المراحل الأولى.

وأمَّا الآن وقد تقدَّم الزَّمان، فإنَّ تركيز العناية عليه، والتَّصدِّي لمقاومته ومحاربته، معناه إضاعة الوقت والجهد، وجهاد في غير جهاد، وانصراف عن الأهمِّ إلى [ما دونه][1].

أما الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام، فكان أول دعوتهم وأكبر هدفهم في كلِّ زمان ومكان وفي كلِّ بيئة هو: تصحيح العقيدة في الله تعالى، وتصحيح الصِّلة بين العبد وربِّه، والدَّعوة إلى إخلاص الدِّين وإفراد العبادة لله وحده، وأنَّه النَّافع الضَّارُّ المستحقُّ

(١) هذا ما تربَّى عليه أعضاء الأحزاب والجماعات الموصوفة بالإسلاميَّة العرب والعجم مع أنهم يولدون ويعيشون ويموتون بين أوثان المقامات أو المزارات والمشاهد، فلا يجعلون أكبر همهم ـ إن اهتمُّوا نادرًا ـ النّهي عن هذا المنكر والشرك الأكبر، بل يعيرون دعاة التوحيد والسنة بأنّهم دعاة الحيض والغسل. (المهذِّب).

للعبادة والدُّعاء والالتجاء والنسك وحده، وكانت حملتهم مركَّزة موجَّهة إلى الوثنيَّة القائمة في عصورهم، الممثَّلة بصورة واضحة في عبادة [أنصاب] الصالحين من الأموات، [التي كانت أصل الشرك الأكبر منذ قوم نوح كما ورد في صحيح البخاري وتفسير ابن جرير وتفسير ابن كثير عن تفسير ابن عباس لقول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ قال: أولئك أسماء رجال صالحين، فلمَّا ماتوا أوحى الشيطان إلى من بعدهم أن ابنوا في مجالسهم أنصابًا، وسمّوها بأسمائهم، فعُبِدت، ثم عبدها العرب: ودّ لكلب، وسواع لهذيل، ويغوث لمراد بالجوف، ويعوق لهمدان، ونسر لذي الكلاع].

وكلُّ من له صلة [تدبّر] بالقرآن يعرف اضطرارًا وبداهة أنَّ القضاء على هذه الوثنيَّة، والإنكار عليها ومحاربتها، وإنقاذ النَّاس من براثنها كان هدف النُّبوَّة الأساسيَّ، ومقصد بعثة الأنبياء، وأساس دعوتهم ومنتهى أعمالهم، وغاية جهادهم، وقطب الرَّحى في حياتهم ودعوتهم، بها يبدأون، ومنها يصدرون، وإليها ينتهون، والقرآن تارةً يقول بإجمال ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

وتارة يقول بالتفصيل فيسمِّي نبيًّا نبيًّا، ويذكر أنَّ افتتاح دعوته كان بالدَّعوة إلى [إفراد الله بالعبادة][1]؛ ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ ونحوها.

---

(١) اقرأ على سبيل المثال الآيات: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥ من سورة الأعراف، والآيات: ٢٥، ٢٦، ٥٠، ٦١، ٨٤ من سورة هود، والآيات ٥١، ٥٤ من سورة الأنبياء، و٦٩، ٨٢ من سورة الشعراء، و٤١، ٤٢ من سورة مريم، و١٦، ١٧، ٢٥ من سورة العنكبوت، و٣٧، ٤٠ من سورة يوسف، و٢٣، ٣٢ من سورة المؤمنون.

وقد سمَّى [الله في] القرآن عبادة الأوثان: [الظلم العظيم] والرِّجس و(قول الزُّور) وشنَّع عليه التشنيع الأعظم فقال في سورة «الحج» مثلاً: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾.

أسوة الأنبياء وطبيعة النُّبوَّة

وتلك هي طبيعة النُّبوَّة وطبيعة الدِّين الذي تجيء به النُّبوَّة، أنَّ أكره شيء إليهما هي هذه الوثنيَّة وعبادة الآلهة الكاذبة والأنصاب والأوثان والأصنام المقامة على يد البشر، التي يطوف حولها النَّاس أو يتقرَّبون إليها بالدعاء أو التضرُّع أو النَّذر أو الذَّبح، ذلك الَّذي لا يجوز إلا لله وحده، ومن أجل ذلك حينما دخل النَّبي ﷺ مكة فاتحًا منتصرًا يتمتَّع فيها بما لم يكن يتمتَّع به من ذي قبل من الكلمة النافذة والأمر المطاع والسُّلطة الكاملة، صنع أوَّل ما صنع أنه دخل الكعبة التي كان فيها وفيما حولها ثلاثمئة وستون صنمًا فجعل يغمزها بقوس في يده فتتساقط على وجوهها، وهو يقول: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾، ويقول: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾[1].

ولم يكتفِ بهذا القدر، بل أرسل سراياه إلى مواطن الأوثان حول الكعبة فحُطِّمت كلُّها، أمثال اللَّات والعزَّى ومناة، الَّتي كانت كبرى الأصنام المركزيَّة في الجاهليَّة، كان يتوافد إليها النَّاس من الأنحاء يدعونها [ويعظّمونها ويتقرَّبون] ويعبدونها ويسجدون لها،

(١) راجع صحيح البخاري، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح. واقرأ للتفصيل (زاد المعاد) ج١ ص٤٢٤.

ونادى مناديه بمكَّة: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنمًا إلا كسره»، وبعث رجالًا من أصحابه إلى القبائل فهدموا أصنامها[١]. يقول جرير ابن عبد الله البجليّ ﷺ: (كان بيت في الجاهليَّة يقال له (ذو الخلصة) [في قبالة لخثعم، وآخر مثله لدوس] و(الكعبة اليمانية) فقال لي النبيُّ ﷺ: «ألا تريحني من ذي الخلصة؟» فنفرت في مئة وخمسين راكبًا فكسرناه وقتلنا من وجدنا عنده، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فدعا لنا)[٢].

وقد بلغ اهتمام النَّبيِّ ﷺ بشأن إزالة آثار الجاهليَّة وشعائر الوثنيَّة، إلى أنَّ ثقيفًا لمَّا طلبوا منه ﷺ أن يبقي صنمهم القومي (اللَّات) لثلاث سنين، وألحُّوا على ذلك حتَّى تنازلوا إلى سنتين، فإلى سنة، فإلى شهر، أبى كلَّ الإباء وأنكر عليهم أشدَّ الإنكار، وأرسل المغيرة بن شعبة وأبا سفيان بن حرب فهدماه. وبلغت به كراهيته للشِّرك بالله بعبادة غيره إلى أنَّه قال فيما قال في مرض وفاته ولدى لحوقه بالرفيق الأعلى: «قاتل الله اليهود والنَّصارى، اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[٣]. وتقول عائشة وابن عبَّاس ﷺ: لمَّا نزل برسول الله ﷺ، طفق يطرح خميصته على وجهه فإذا اغتمَّ كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنَّصارى، اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، يحذِّر ما صنعوا، متفق عليه. ممَّا يدلُّ على أنَّه ﷺ كان يرى الشِّرك [وذرائعه شرّ] أدواء الأمم والملل، وكان يخاف أن تعود الوثنيَّة، وتدبُّ فيها الحياة وتستأنف النَّشاط، فحذَّر منها أمَّته، ولم يفته أن يؤكِّد الإنذار حتَّى [وهو يلفظ آخر أنفاسه]،

(١) راجع للتفصيل (زاد المعاد) ج١ ص٤٣٩.
(٢) صحيح البخاري، باب غزوة ذي الخلصة.
(٣) موطأ الإمام مالك.

وفي آخر عهده بالدُّنيا، وأعرب عن أشدِّ كراهيته ومقته لها، وتأذِّيه بها، وتألُّمه منها، ومعنى ذلك أن الدُّنيا مهما تغيَّرت، وأنَّ الزَّمان مهما تقدَّم، وأنَّ الإسلام مهما قطع أشواطًا بعيدة في التقدُّم والانتشار والانطلاق، فسيظلُّ هذا الخطر قائمًا، وعلى العلماء وأصحاب الدَّعوة [العلماء الذين هم ورثة] الأنبياء أن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم، وأن يعدُّوا لمقاومته عدَّتهم، وأن لا تجد الهوادة عندهم منفذًا فيما يتَّصل بهذا الجانب. قال النبي ﷺ: «لا يذهب اللَّيل والنهار حتى تعبد اللّات والعزَّى» رواه مسلم حديث ٢٩٠٧.

[الوثنية الأولى قائمة بين أكثر المتدينين]:

إنَّ هذه الوثنيَّة والشِّرك ـ بمعنى التّعبد لغير الله، والتذلُّل له، ودعائه والاستغاثة والاستعانة به، والنَّذر والذَّبح له والطواف به ـ: هي الجاهليَّة المتواصلة التي هي أقدم أدواء البشر وأسوأ مواضع ضعفه وسقطاته، وهي باقية مع البشر في جميع مراحل حياتهم وتطوُّراتها، وهي الَّتي تثير غضب الله وغيرته، وتحول بين العبد [وبين رضا ربه الذي خلقه]، وتهبطه من أعلى الدَّرجات إلى أسفل الدَّركات ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾، تهبطه من درجة سجود الملائكة لأبيه آدم إلى درجة سجوده هو، أو دعائه أو استغاثته بالغائب من المخلوقين، [بل بالمعدوم من أمواتهم، ولا يكاد بلد من بلاد المسلمين العرب أو العجم أن يخلو من أوثان المقامات والمزارات غير المملكة السّعوديّة]؛ إنها هي الجاهليَّة التي تقضي على الاعتماد على الله، وتصرف الإنسان عن الالتجاء إلى الله السميع البصير، العليم القدير، الجواد الوهاب، الغفور الودود، والاستفادة من صفاته التي لا تعدّ وخزائنه التي لا تنفد، إلى الالتجاء إلى الضَّعيف

الفقير، العاجز الحقير، الذي لا يملك شيئًا، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾.

جاهد الأنبياء الوثنية على مدار التَّاريخ البشري:

الوثنيَّة بجميع أشكالها الواضحة والدَّقيقة، كانت موضوع جهاد الأنبياء في كلِّ عصورهم وفي جميع بيئاتهم ومجتمعاتهم، وهو الذي أثار غضب أهل الجاهليَّة، فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾.

ومما لا يشكُّ فيه عاقل درس تاريخ العصر النَّبوي، واطَّلع على أخبار صحابة الرَّسول ﷺ أنَّ الصَّحابة لم يكونوا يفهمون من هذه الآيات التي سردناها إلَّا هذه الوثنيَّة السَّافرة، وعبادة النصب والأوثان، وتقديس [البشر العاجزين أو الأموات أو قبورهم ومزاراتهم]، أو الذَّبح أو النَّذر لهم، أو الحلف بأسمائهم، أو التقرُّب إلى الله [بدعائهم] والاعتماد على شفاعتهم، وطلب المدد والنَّفع والضُّر وكشف الكربة منهم، وهذا هو المستفيض من واقع آثارهم وأخبارهم ومناهج ابتداعهم وشركهم، لا يختلف فيه اثنان.

ولا يزال هذا هو الرُّكن الأساسيُّ في الدَّعوات الدِّينيَّة [على بصيرة من الكتاب والسنة والفقه الأوّل فيهما]، إلى يوم القيامة، وهو تراث النُّبوَّة الخالد، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

أما مظاهر الجاهليَّة الأخرى كالطَّاعة المطلقة والتَّحاكم إلى غير الله وقبول التَّشريع غير الإلهي، والتحاكم لغير كتاب الله وسنة رسوله، وعلى غير أحكامهما؛ فكلُّ ذلك يتبع هذه الوثنيَّة والشِّرك

ويأتي بعده، ولا يجوز أن يقلِّل من شأن شرك العبادة الجليِّ المنتشر اليوم وأهمِّيته، وأن يوضع في الهامش من منهاج دعوة أو جهاد، أو يساوى بينه وبين معاني الطَّاعة والحكم السِّياسيَّة، ويحكم عليها حكمًا واحدًا، أو يعتقد أنه من خصائص الجاهليَّة القديمة المحدودة المتخلِّفة التي ولّى عصرها وانقضى دورها، لأنَّ ذلك لا يتَّفق مع الواقع المشاهد؛ فلا تزال الوثنيَّة والشِّرك الأكبر تقوم على قدم وساق بأشكالها وأنواعها القديمة[1]، وما يصنعه الجهلة من النَّاس من أعمال الشِّرك الجليِّ على ضرائح نسبت للأولياء والصَّالحين فيه كفاية ومقنع، فلم يتركوا شيئًا من غوايات الجاهليَّة القديمة وضلالات الأمم الماضية، وغلوِّهم في تقديس غير الله وتعظيمه، وسجود بعضهم له والنَّذر والذَّبح له، والدُّعاء والالتجاء إليه، والخوف والرَّجاء منه، [والخشوع أمامه] ـ الذي لا يستحقُّه إلا الله ـ إلّا أتوا به جهارًا وعلانية، لك أن تشاهد ذلك بأمِّ عينيك هنا وهناك وفي كلِّ مكان، ثم إنَّ الادِّعاء بأن مظاهر الشِّرك الجليِّ المتقدِّم ذكره، من خصائص الجاهليَّة الأولى الساذجة، إساءة إلى دعوة الأنبياء وجهودهم، وشك في خلود القرآن، وأنه هو الكتاب الأخير الدَّائم، ولا شك في أنَّ منهاج النُّبوَّة هو المنهاج الصَّحيح الذي ارتضاه الله تعالى، والذي كتب له من النجاح والتَّوفيق والإنتاج والإثمار ما لم يكتب لأي منهاج من مناهج الإصلاح [قبله أو بعده].

---

(١) واقرأ على سبيل المثال كتب (الرد على البكري) و(الرد على الأخنائي) لشيخ الإسلام ابن تيمية، و(تقوية الإيمان) للعلامة الشيخ إسماعيل الشهيد. وقد نقله إلى العربيّة كاتب هذه السطور باسم (رسالة التوحيد). (النَّدْوِيُّ).
لن تجد بلدًا إلا وفيه مسجد أو كنيسة أو معبد بني على قبر عدا السعودية التي قامت دولتها على هدم هذه الأوثان ثلاث مرّات منذ ٢٨٠ سنة حتى الآن. (المهذِّب).

الألوهيَّة هي السُّلطة والحاكميَّة [فأين العبادة]؟

عند الأستاذ المودودي: أصل الألوهيَّة وجوهرها هو السُّلطة)[١] و(كلٌّ من الألوهيَّة والسُّلطة تستلزم الأخرى ولا فرق بينهما من حيث المعنى والرُّوح)[٢] و(القرآن يجعل الربوبيَّة مرادفة للحاكميَّة والمِلْكيَّة)[٣] فإذًا لا يعود مفهوم (العبادة) وأصلها وحقيقتها، إلّا الطَّاعة والانقياد والولاء والوفاء. وقد أخذت النُّقطة المركزيَّة للربوبيَّة والألوهيَّة، وفكرتهما الرئيسيَّة وأخصُّ خصائصهما (السُّلطة)، ومفهومهما الوحيد، وحقيقتهما الأصيلة، كل مأخذ من ذهنه، حتَّى ضَعُفَ فيما يرى هو ـ أو بتعبير أدقَّ فيما تدلُّ عليه كتاباته ـ شأن العبادات وأعمالها ومظاهرها وشعائرها، التي شرعها الله، ودعا إليها الدِّين، وأحبَّها النبي حبًّا يفوق الوصف، وجاءت عشرات من الآيات القرآنيَّة ومئات من الأحاديث النبويَّة، ترغِّب فيها، وتنوِّه بشأنها، وتشيد بذكر فضائلها، وتحرِّض على التنافس فيها، وتثني على المكثرين منها والمعنيِّين بها، وتندِّد بالراغبين عنها أو المقصِّرين فيها؛ فبدت الشَّعائر التَّعبُّدية للأستاذ المودودي في درجة ثانويَّة، وبدا له الانهماك في الدعوة إليها والمداومة عليها [إنما هو] نتيجة للجهل [بما يسميه] روح الدِّين[٤]، ورمز عهد الانحطاط، وأخذت فكرته ودعوته

---

(١) راجع (المصطلحات الأربعة في القرآن) ص٢٣.

(٢) راجع نفس المصدر، ص٢٩.

(٣) انظر: المصدر السابق، ص٩٣.

(٤) كلمة الرّوح والرّوحانية من الألفاظ التي اقتبسها هؤلاء الكتاب ومن تبعهم هداهم الله من البدع النصرانية، أمّا في الإسلام الحق فالرّوح والجسد لا ينفصلان إلا بالموت، وكل منهما مخاطب بالشريعة، وتطورت هذه البدعة عند الإسلاميين فقسموا الدِّين إلى لبّ وهو الحاكميّة وقشور مثل الوضوء والغسل ونحوها من أحكام الشريعة. (المهذِّب).

هذه شدَّتها وحدَّتها حتَّى جعلت أسلوبه الكتابي يتَّسم لدى الحديث عن الفكرة المركزيَّة للعبادات وجوهرها، التي لا يتجاسر أحد من أهل العلم أن ينكر أهميتها في حدِّ ذاتها ـ بما يشبه الاستخفاف بتلك العبادات المشروعة، وهنالك يتحوَّل عن الأسلوب الهادئ إلى الأسلوب الهادر [كما هو حال سيِّد قطب، تجاوز الله عنهما].

يقول ـ وهو يتحدَّث عن عناصر العبادة (الولاء للسيِّد، والطَّاعة له، وتعظيمه) مقرِّرًا أنَّ هذه الأمور الثَّلاثة هي التي عبَّر عنها الله سبحانه بكلمة (العبادة) الجامعة: (استحضر في ذاكرتك هذا المعنى للعبادة ثم أجب على تساؤلاتي الآتية:

ما رأيك في الخادم الذي بدل أن يذهب فيقوم بالوظيفة التي أسندها إليه سيِّده، يظلُّ قائمًا أمامه واضعًا إحدى يديه فوق الأخرى، يتلو اسمه ملايين المرات؟ يقول له سيِّده: اذهب فأدِّ حقَّ فلان وفلان، لكنَّه لا يبرح مكانه ويسلِّم على سيِّده عشر تسليمات راكعًا خاضعًا، ويستوي قائمًا يضع إحدى يديه فوق الأخرى، ويأمره سيده قائلًا: اذهب فاقضِ على [تلك] المفاسد، لكنَّه لا يتحرك من مكانه قيد بوصة، ويسجد لسيده مرَّة بعد أخرى، يقول له سيده: اقطع يد السَّارق، فيظلُّ قائمًا ويكرِّر عشر مرَّات بصوت جميل: اقطع يد السَّارق، اقطع يد السَّارق، لكنه لا يتحرك ليقوم ولو مرَّة واحدة بمحاولة لإقامة نظام الحكم الذي يسمح بقطع يد السارق؛ أفهل تقول: إنَّ الرجل يعبد سيِّده بمعنى الكلمة؟ وإني لأعلم ما ستقوله لخادم لك وقف هذا الموقف، ولكن يا له من عجب منك، من يصنع من خدم الإله هذا الصَّنيع تحسبه أنت عابدًا، الله أعلم كم مرة يقرأ هذا المسكين أحكام الله في القرآن الكريم منذ الصباح إلى المساء، لكنَّه لا ينشط من مكانه لتحقيق تلك الأحكام، بل يستمرُّ يصلِّي النَّفل بعد النَّفل، ويسبح باسم الله

على سبحة ذات ألف حبَّة، [ويمعن] في تلاوة القرآن، وأنت ترى صنيعه هذا، فتقول: ما أعبده وما أزهده! وإنما وقعتَ فريسة هذا الفهم الخاطئ لأنّك لا تدري المعنى الحقيقي للعبادة)[1].

[قارن فكر المودودي بوحي الله تعالى إلى رسوله ﷺ في حديث (الصحيحين) عمّن سأل عن الإسلام فأجابه النبي ﷺ: «خمس صلوات في اليوم واللَّيلة... وصيام شهر رمضان» وذكر الزكاة والسائل يقول: هل عليَّ غيرها؟ والنبي ﷺ يقول: «لا، إلّا أن تطّوَّع» فيقول السائل: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منهُ فيقول النبي ﷺ: «أفلح إن صدق»، وفي رواية: «دخل الجنة إن صدق» وكم هم المكلّفون بإقامة الحدود في الأمة؟].

ومن ألمَّ بمحاولات الإصلاح والدعوة ـ التي لا تزال مستمرَّة منذ اليوم الأوَّل لبعثة محمد ﷺ حتَّى يوم النَّاس هذا ـ [يعلم أنَّ العلماء بشرع الله الدّعاة على منهاج النبوة مع صرف أكبر همِّهم وجهدهم إلى الدَّعوة إلى إفراد الله بالعبادة ونفيها عما سواه والأمر بالفرائض والنهي عن المحرمات وتنفيذ جميع الأحكام الشرعية في الاعتقاد والعبادات والمعاملات مستشهدين بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾؛ لم يستهينوا بإقامة الحدود لمن أهَّله الله لإقامتها من ولاة الأمر (لا العامة)، بل دعوا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالحسنى، فلم يهملوا أمرًا من أمور الشريعة، ولم تتضمّن دعوتهم الاستهانة بشيء من الأحكام؛ لا الوضوء والغسل فضلًا عن الاعتقاد والصلاة وبقية العبادات كما فعل دعاة الفكر] ولا سيما في هذا العصر الذي طغى فيه الاهتمام الدنيوي على الاهتمام الدِّيني، وبدأت تقلُّ أهميَّة الإكثار من العبادة

(١) (خطبات) باللغة الأردية، ج٣ ص٦، ٧، دلهي ـ الهند.

والذِّكر، وأصبح الأسلوب المادِّي والسِّياسيِّ يفرض سيطرته على الحياة، فكم كان يتحتَّم التَّحفُّظ وملاحظة الدّقة والحكمة لدى الحديث عن مثل هذا الموضوع الدَّقيق الحسَّاس في مثل هذا الوضع المتردِّي، فإن النائم يكفيه أدنى هزَّة للسقوط.

الترغيب في الذكر وغيره من العبادات:

[والله تعالى في] القرآن الكريم يرغِّب مرَّة بعد أخرى في الإكثار من أعمال العبادة، ويثني على المكثرين منها، وينوِّه بشأنهم، ويلهج بذكرهم في معرض المدح والثَّناء، قال الله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿١٤﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

ويمكنك أن تقدِّر مدى استحسان الله سبحانه لصفة الذِّكر والإنابة والإخبات والإقبال على ذات الله، من أنَّه يحثُّ عبده ورسوله محمَّدًا ﷺ سيِّد ولد آدم يوم القيامة ـ الذي عن طريقه أوتيت الأمّة أنواع سعادة الدُّنيا والآخرة ـ على أن [يحبس نفسه في مرافقة] المتحلِّين بهذه الخصال، يقول الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾. ويقول في موضع آخر: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

أمَّا الأحاديث الصَّحيحة التي تنوِّه بفضيلة الإكثار من النَّوافل والذِّكر والتِّلاوة، فعددها يستعصي على الاستقصاء، وللقارئ الكريم أن يراجع الكتب والأبواب المفردة لبيان ذلك في كتاب من كتب الصِّحاح الستة، وليقرأ خاصَّةً حديث التقرُّب بالنوافل وحب الله لأهلها ليدرك مدى فضيلة النَّوافل وكبر شأنها، أما الإكثار من الذكر فيكفي الحديث التَّالي:

عن عبد الله بن بسر ﷺ أنَّ رجلًا قال: يا رسول الله، إنَّ شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ فأخبرني بشيء أتشبَّث به، قال: «لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله»، رواه الترمذي.

الأثر النفسي للتركيز على الحاكمية والسلطة:

إنَّ هذا المنهج من التفكير، وهذا الأسلوب الكتابيَّ ـ الذي قد أسلفنا نماذج منه ـ يشكِّل ظاهرة خطيرة قد بدت آثارها [المدمّرة]؛ وهي: أن الذين يستقون معلوماتهم الدِّينيَّة من نبع هذا التَّفسير السياسي للإسلام وحده، وتقتصر دراستهم للإسلام على هذه الكتابات وحدها، [والحزبية تدعوهم إلى ذلك]؛ ستعود علاقتهم بالله محدودة جافَّة، جامدة رسميَّة، فارغة من الإخبات القلبي والجسدي المطلوب من المؤمن أن يتكيَّف به، ولا سيَّما إذا جاء الضَّغط مرارًا وتكرارًا على أنَّ الهدف الجذري من بعثة الأنبياء، وغاية تعاليمهم ومنتهى أعمالهم، هو إحداث التَّغيير في [حاكمية] هذه الحياة الدُّنيا المحدودة، والقيام بالانقلاب [على السلطة، وعمارة الأرض]، وتأسيس الحضارة البشرية على [أسس الفكر الإسلامي].

وإذا جاء التَّركيز على هذه النَّاحية بشدَّة وحدَّة، وحماس وقوَّة، وبأسلوب يجعل الطموح إلى الحب الإلهي، والرضا الربَّاني،

والفلاح الأخروي يتضاءل، فمن الطَّبيعي وممَّا يتفق والعقل والمنطق والقياس، أن يحيد ركب السعي والعمل عن جادَّة الإيمان بالغيب، والحنين إلى الآخرة، وطلب رضا الله، [وعبادته خالصًا لوجهه] والتَّفاني في حبِّه، تلك الجادَّة التي [دلَّ] عليها الأنبياء عليهم الصلاة والسَّلام، [فيتجه العبد] إلى درب طلب الحُكْم والعزِّ والغلبة والوصول إلى السلطة، وبالتَّالي إلى الماديَّة المجرَّدة[١].

اقرأ المقتطفات القليلة الآتية من كتب الأستاذ المودودي لكي تدرك بعض الشَّيء أيَّ نوع من القلوب والأذهان [سيصاغ] بهذا القالب من التفكير:

١ ـ (إنَّ الإسلام يهدف أصلًا إلى تخريج جماعة من الصَّالحين تقوم ببناء المدنيَّة الإنسانيَّة على أسس من الخير والفلاح)[٢].

٢ ـ (من أجل تأسيس هذه الحضارة والمدنيَّة في الأرض بُعِث الأنبياء تترى)[٣].

٣ ـ (فغاية مهمة الأنبياء في الدُّنيا هي الحكومة الإلهيَّة وتنفيذ نظام الحياة ـ بجميع أجزائه ـ الَّذي جاؤوا به من عند الله)[٤].

---

(١) وهذا ما يرى اليوم عيانًا في نتائج التربية الحزبيّة الموصوفة بالإسلاميّة، فلا القادة ولا الأتباع جعلوا أكبر همهم ـ بل ولا أقلّه ـ الدعوة إلى أول ما دعا إليه جميع رسل الله بأمره: الأمر بإفراد الله بالعبادة، ولا النهي عن أول ما نهى عنه جميع رسل الله بأمره: الشرك في العبادة ولا الأمر بالتزام السنة ولا النهي عن الابتداع في الدِّين. (المهذِّب).

(٢) (نظرة فاحصة على العبادات الإسلاميَّة (باللغة الأردية) الجزء الأول، ص٧٥، توزيع: دار الإشاعة نشأة ثانية، حيدر آباد.

(٣) (التجديد وإحياء الدِّين) (اللغة الأردية) توزيع مكتبة الجماعة الإسلاميّة، دار الإسلام، بنجاب، ص٢١.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٢.

ويقول فيما بعد هذه السطور:

(من أجل ذلك حاول الأنبياء إحداث الانقلاب السِّياسيِّ، فاقتصرت جهود بعضهم على تهيئة الأرض، كسيِّدنا إبراهيم ﷺ، وقام بعضهم فعلًا بحركة الانقلاب، ولكنَّ عملهم قد توقَّف دون أن يتحقق تأسيس الحكومة الإلهيَّة كسيدنا المسيح ﷺ، وبعضهم وصلوا بهذه الحركة إلى منزل النَّجاح، كسيِّدنا موسى ﷺ، وسيِّدنا محمد ﷺ)[١].

هل أركان الإسلام مجرَّد وسائل؟

[المفكر المودودي] تتملَّك عليه هذه الفكرة المركزيَّة مشاعره، وتستولي عليه استيلاء يجعل جميع العبادات وأركان الإسلام الأربعة (الصَّلاة، والصَّوم، والزَّكاة، والحجَّ) تبدو له وسائل وذرائع إلى تلك الغاية، وتدريبًا لها، وتمرينًا لها، قد صرَّح بذلك مرَّات ومرَّات، منها قوله:

(هذه ـ أي السلطة أو الانقلاب السّياسي أو الحاكمية ـ هي الغاية التي من أجلها فرض الإسلام عبادات الصَّلاة والصَّوم والزَّكاة والحجّ، والتعبير عنها بالعبادة لا يعني أنها هي العبادة ليس غير، بل معنى ذلك أنها تُعِدُّ الإنسان لتلك العبادة، فكأنَّها مقرَّرات تدريبيَّة لازمة لها)[٢].

بيان القرآن الصريح وترتيبه الصحيح:

إن العبارة المذكورة قبل هذه تدلُّ دلالة واضحة على [اعتقاد

---

(١) نفس المصدر، ص٢٢.

(٢) (نظرة فاحصة على العبادات الإسلاميَّة) ج ١، ص١٣.

المودودي] أنَّ [أركان الإسلام العملية وأعظمها الصلاة ما هي إلّا وسائل لغاية أعظم في رأيه: تأسيس الحكومة] على حين يبيِّن الله في القرآن الكريم بأنَّ الجهاد والحكومة وسيلة و(إقامة الصلاة) هي الغاية، فلنقرأ ونتدبَّر ونعلم ما هي الغاية.

قال الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٣٩ ـ ٤٠].

ونظرة على القرآن الكريم تدلُّ دلالة واضحة على أن أحكام الاعتقاد ثم العبادات ثم المعاملات، ومن أعظمها (الصَّلاة، والصَّوم، والزَّكاة، والحج) مطلوبة من العبد [استقلالًا] حيث يسأل عنها يوم القيامة، ويستحق العقاب لو تركها أو أهمل فيها.

يقول الله تعالى في القرآن الكريم وهو يقصُّ الحوار مع الذين استحقُّوا النَّار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾.

ويقول [الله تعالى عن موت الكافر]: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾.

هذه الآيات تدلُّ صريح الدِّلالة على أن العبادات [وأعلاها إفراد الله بالعبادة] هي الدِّين؛ يؤاخذ عليها العبد ويحاسب يوم القيامة، أما الأمور الأخرى، كإقامة الحكومة الإلهيَّة وتأسيس المدنيَّة الإسلاميَّة على أسس الخير والفلاح؛ فهي وسائل، وفي درجة [تالية، وهي فرض كفاية، ولا يكلّف بها أكثر الأمَّة].

القدوة فيما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه:

من الحقائق الَّتي لا تقبل الجدال والنِّقاش أنَّ (الوسائل) لا تكون علاقة المرء بها إلَّا علاقة عادية محددة في نطاق الضَّرورة، ومن الطَّبيعي أن يراها مرحلة انتقاليَّة مؤقَّتة، ومن هنالك فلا يفكِّر في أن يتقدَّم فيها ويتفوَّق، ويصل إلى مدارج الكمال، ولا تثور في نفسه عاطفة التعلُّق بها، والاطمئنان إليها، وإذن فيعجز الإنسان الذَّكي عن تحديد معاني الأحاديث، وإدراك قيمتها وأهمِّيتها، تلك التي تصف كيفيَّة صلاة النبيِّ ﷺ بما يلي: «ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء»(١). و«جُعِلَتْ قرَّة عيني في الصَّلاة»(٢). وقوله ﷺ لبلال رضي الله عنه: «يا بلال أقم الصَّلاة أرحنا بها»(٣)، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلَّى(٤).

[ولم يقاتل أبو بكر وبقية الصحابة رضي الله عنهم المرتدِّين بعد موت النبي ﷺ إلّا بعد أن منعوا الزكاة أو تركوا غيرها من أركان الإسلام والإيمان، وقال أبو بكر رضي الله عنه: (والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدُّونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه) فيما رواه البخاري ومسلم].

[ونعلم علم اليقين من كتاب الله وسنة رسوله أنَّ النبي ﷺ لم يؤمر بتأسيس الحكومة ولا المدنيَّة وأنه قضى في مكة بضع عشرة سنة لا يطلب أيًّا منهما، بل يقول كتَّاب السّيرة أن قريشًا عرضت عليه الملك فرفضه، وورد في الحديث أنه خيِّر بين أن يكون مَلِكًا رسولًا أو عبدًا رسولًا فاختار العبودية والرسالة].

---

(١) رواه أبو داود والترمذي.
(٢) رواه النسائي.
(٣) رواه أبو داود.
(٤) رواه أبو داود.

[تدنِّي مرتبة الوسيلة عن الغاية]:

إنَّ الوسائل ـ كما أسلفت ـ لا يُعْنى بها الإنسان إلا بقدر الضَّرورة، فلا يشغف بها، ولا ينهمك فيها. وإذا كانت العبادات ـ حتَّى الصَّلوات الخمس المفروضة ـ مجرَّد وسائل وذرائع فما معنى طول قيامه ﷺ وطول صلاته في جوف الليل «حتَّى تورَّمت قدماه»[١] [بعد الفتح والنَّصر المبين]؟ وما معنى ترغيبه في الإكثار من النَّوافل وتبشيره بأنها تقرِّب العبد إلى ربِّه[٢] وتنويهه بأهمِّية انتظار الصَّلاة بعد الصَّلاة، وتعبيره عن ذلك بلفظ: «الرباط»[٣] وإدراجه الرَّجل الذي «قلبه معلَّق بالمساجد»[٤] في أولئك السُّعداء الذين «يظلُّهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه» وقوله ﷺ: «عليك بكثرة السُّجود»[٥]،

---

(١) روى الشيخان والترمذي والنسائي عن المغيرة بن شعبة أنه «قام النبي ﷺ حتَّى تورمت قدماه».

(٢) اقرأ الحديث: «لا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل... إلخ» الذي رواه البخاري في صحيحه.

(٣) أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟» قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط».

(٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله تعالى، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتَّى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه (متفق عليه).

(٥) جاء مرويًّا عن ثوبان وأبي الدرداء رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «عليك بكثرة السجود، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحطَّ عنك بها خطيئة» (رواه مسلم، والترمذي، وابن ماجه، والنسائي، وأحمد في مسنده).

وفوق ذلك كلّه وصف الله في القرآن الكريم المؤمنين بالكلمات ذات الدِّلالات العميقة ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾﴾، و﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾، ممَّا يدلُّ على أنَّ هذه العبادات ليست وسائل مجرَّدة إلى (إقامة الحكومة والحضارة والمدنية والتنظيم والحكم) بل إنها غاية منشودة وأعمال مقصودة بذاتها، وإن كان لا بد من وصفها بالوسائل، فإنها وسائل التقرُّب إلى الله والفوز برضاه.

ومن نتيجة هذا الأسلوب من التَّفكير أنه يجعل المرء لا ينبعث في نفسه الشُّعور بالصِّلة [الرّبانية] بالعبادات، ولا تثور في قلبه عاطفة الحصول على صفة الخشوع والخضوع، والإخبات والاستحضار، ودوام الذِّكر والإخلاص، والإيمان والاحتساب، ولا يحسب حسابًا لقيمتها وغنائها، فضلًا عن أن يفكِّر في الحصول عليها، والتَّفوُّق فيها، وإحراز قصب السَّبق في مجالها، وأن يبحث عن أئمة [العلم والفقه في الدِّين] ليتعلم من علمهم ويعمل بوصاياهم.

واجب [الحكم بشريعة الله] في ضوء الشَّريعة:

ولا أعلم خلافًا بين علماء الإسلام، فيما يتَّصل بالسَّعي وراء الحصول على سلطة وقوَّة تمكّنان من تطبيق شرع الله على البشر تطبيقًا عمليًّا، وتنفيذ أحكامه وحدوده في المجتمع البشريِّ، حتَّى لا تعود هناك قوَّة أو سلطة أو نظام أو طاعة توقع النَّاس في صراع وفتنة، قال الله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾. كما يجب الحصول على قوَّة ومكانة تملك بها الجماعة المسلمة القيام بالأمر [بالمعروف]، والنَّهي عن [المنكر حسب الاستطاعة باليد أو اللِّسان أو القلب كما صحَّ عن النبي ﷺ] ولا تكتفي بمجرَّد الدَّعوة اللِّسانية والتَّرغيب البياني فحسب، ولذلك آثر القرآن ولسان الوحي التَّعبير بكلمة (الأمر) و(النهي) على سعة

اللغة العربيَّة وغناها، وهما تتطلَّبان شيئًا من القوَّة والعلوِّ والغلبة حتَّى تكون [الدّولة] في موقف الآمر والنَّاهي.

قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾.

والحصول على هذه السُّلطة والقوَّة، والجد والاجتهاد في سبيله، مطلوب من المسلمين بالآيات القرآنيَّة والنُّصوص القطعيَّة، ولا يجوز الإهمال فيه والتَّقصير عنه في حال من الأحوال، وقد زخر القرآن والحديث بالتَّحذير من النَّتائج الوخيمة المشؤومة المترتِّبة على ترك هذا [الواجب الشرعي] العظيم، من انطماس معالم الدِّين وزوال شعائره، وذلِّ المسلمين وهوانهم وعبوديَّتهم، وإلغاء الحدود الإلهيَّة والأحكام الشَّرعيَّة، والفوضى والاضطراب في الحياة، والحرمان من النُّصرة الإلهيَّة والسَّعادة الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، ومن أجل ذلك أَوْلَت الشَّريعة [السّمع والطاعة لولاة الإمارة والخلافة والملك] والولاية أهميَّة بالغة حتَّى جعلت الحياة بدونها حياة (جاهلية) وجعلت الموت في هذا الوضع (ميتة جاهليَّة). وعلى هذا اهتمَّ الصَّحابة ﷺ بأمر الولاية واختيار خليفة لرسول الله ﷺ وأمير للمسلمين يجمع شملهم ويتولَّى أمورهم، على إثر وفاة الرَّسول ﷺ وقدَّموه على كلِّ أمر، وفي سبيل الأخذ بها إلى النَّهج الصَّحيح وإعادتها إلى سيرتها الأولى، جاهد [أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ومن ولي الأمر بعدهم ﷺ]، وما زال فقهاء الإسلام [الدعاة إلى الله على منهاج النبوة يرفعون راية الجهاد باللِّسان والقلم لتجديد الدِّين بالعودة به إلى ما كان عليه النبي وأصحابه ضمانًا] لإقامة الحُكْم [الشرعي]، وإذا تغافل عنه العالم المسلم أصبح ذليلًا مهانًا لا قيمة له ولا رهبة، وأصبح قصعة تداعت عليها الأكلة من الحكومات والشُّعوب الأخرى.

لكنَّ ذلك على عظم خطره وجلالة شأنه لا يخرج من أن يكون وسيلة عظيمة لغاية [أعظم يعرفها] الَّذين درسوا تعاليم الكتاب والسنة دراسة دقيقة عميقة، وامتازوا بالرُّسوخ في العلم والاطِّلاع الواسع الدَّقيق على السِّيرة النَّبويَّة وعلى أخبار الصَّحابة، وكان علمهم بشرع الله وفقههم في الدِّين والدعوة كلُّه منبثقًا من صميم التَّعاليم النَّبويَّة، ولم يكن صدى أو رد فعل لما كان يموج به عصرهم من حركات هدَّامة، أو دعوات مضلِّلة، أو جاهليَّة عصريَّة.

ويجدر بي أن أنقل هنا ما قلته في التَّرجمة الأردية لكتابي (النُّبوَّة والأنبياء في ضوء القرآن) بمناسبة الحديث عن هذه الظِّلال التي تحدثها (ردود الفعل والتَّفاعل في كتابات بعض الكتَّاب الإسلاميِّين المعاصرين): (ولك أن ترى ظلال ذلك التَّفاعل في كتابات الإسلاميِّين المعاصرين، فحينما لاحظوا ما تحقَّق من نجاح باهر مطَّرد للفلسفات الغربيَّة والسيطرة السِّياسيَّة الأوروبيَّة في جانب، [وضعف] المسلمين [وتذبذب] المجتمع الإسلاميِّ واضطرابه، أو حيرته بين [العبادة] (الغاية) و[السلطة] (الوسيلة) ومَقْتُهم حكم الأجانب في بلادهم في جانب آخر، أثار ذلك فيهم النَّخوة [للإسلام]، ونبض فيهم العِرْق القوميُّ [المرتبط] بالإسلام، وهرعوا إلى دراسة الإسلام من جديد، وإلى تحدِّي هذا الوضع المزري، وبالتَّالي إلى تقديم فلسفة توصف بالإسلاميَّة ونظام يوصف بالإسلاميّ للحياة مقابل تلك الفلسفات والنُّظم، وقد غشيت هذه الظِّلال السَّلبية كتاباتهم وتعبيراتهم وأساليب تفكيرهم، يراها كلُّ من أتيحت له دراسة الكتاب والسنة دراسة مباشرة مجرَّدة عن التَّأثُّرات الخارجيَّة والثَّقافات الأجنبيَّة، ويدرك مدى تأثير هذه الفلسفات والنُّظم الحديثة وسيطرتها القويَّة على هذه الكتابات، والحركات والمنظّمات، والمدارس الفكريَّة الحديثة.

أما [الدعاة إلى الإسلام العتيق] فقد يجلّي حديثهم وكتاباتهم هذا الفرق بين [العبادة] (الغاية) و[السلطة] (الوسيلة)، ويتجلَّى لمن جالسهم أو عرفهم عن كثب أو تعمق في قراءة ما صدر عن أقلامهم، أنَّ الرَّائد الذي يحدوهم والدَّافع الذي يدفعهم هو الإيمان والاحتساب، وأنَّ المقياس في جميع المحاولات والجهاد في سبيل الحصول على القوَّة والسُّلطة، وإقامة الخلافة والإمارة، إنَّما هو [إفراد الله بالعبادة ونفيها عن غيره] والتأسِّي بأسوة النُّبوَّة، والامتثال للأمر النَّبوي، وإعلاء كلمة الله، وتنفيذ وإحياء العلوم الدِّينيَّة، وإقامة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر [والرجوع إلى الفقه الأول].

وقد عرف العلّامة أحمد بن عبد الرَّحيم وليُّ الله الدهلويُّ (الخلافة) في كتابه الفريد (إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء) بالكلمات الآتية: (هي الرئاسة العامَّة في التَّصدي لإقامة الدِّين، بإحياء العلوم الدِّينيَّة، وإقامة أركان الإسلام، والقيام بالجهاد وما يتعلق به من ترتيب الجيوش، والفرض للمقاتلة، وإعطائهم من الفيء. والقيام بالقضاء، وإقامة الحدود، ورفع المظالم، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، [طاعة لأمر الله عزَّ وجلَّ] ص٢ ط.أكاديمية سهيل، لاهور.

ويقول [أثناء] تفسيره لهذه العبارة المذكورة أعلاه: (فلو أردنا أن نعبِّر عن هذه الشُّعب والشُّؤون (التي تتضمَّنها الخلافة) وعن الجزئيَّات بالكلِّيَّات، وعن الكلِّيَّات بكلِّيٍّ واحد يشمل كلَّها ويكون [عنوانًا ومثلًا] أعلى لهذه الأنواع والأجناس جميعها، لقلنا: إنَّها (إقامة الدّين)؛ فهي تتضمَّن جميع الكلِّيَّات الَّتي تدخل في نطاقها جميع الجزئيَّات) ص٢.

[ويقول في صراحة تامّة]: (ونصب [الولاة] واجب بالكفاية على المسلمين إلى يوم القيامة)، ص٢.

ثمَّ يقول بعد تقديم الدلائل الشرعيَّة على ذلك: (إنَّ الله تعالى جعل القيام بالجهاد، والقضاء، وإحياء العلوم الدِّينيَّة، وإقامة أركان الإسلام، وذود الكفار عن حوزة الإسلام، فرضًا بالكفاية، وهذه الأمور كلُّها لا يمكن أن تتحقَّق بدون [وسيلتها] نصب (الإمام) ومقدِّمة الواجب واجبة)، ص٢. يعني أنَّه إذا كان هناك واجب لا يمكن أن يتحقَّق إلّا بعمل آخر، فإذن يجب القيام بهذا العمل أيضًا.

وأرى لزامًا عليَّ أن أؤكِّد بهذه المناسبة أنَّ كلمة (إقامة الدِّين) لا يجوز أن تجعل [مرادفة لدعوى] السعي وراء تأسيس (الحكومة الإلهيَّة)؛ إنَّها أوسع وأجمع معنى ومفهومًا ممَّا يستخدم في كتابات كثير من الكتَّاب الإسلاميِّين المعاصرين، فإنَّ (إقامة الدِّين) تجمع بين جميع تلك الشُّعب التي أبانها [العلامة] وليُّ الله في كتابه، ووردت هذه الكلمة في قول الله تعالى: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾. وسياق الآية يدلُّ دلالة مؤكَّدة على أنَّ المراد به هو الدِّين بأجزائه وجميع تعاليمه [وأهمّها: الاعتقاد ثم] العبادات ثم المعاملات [ومن المعاملات الولاية والسلطة]، وليس المراد [الولاية والسّلطة أولًا شرعًا ولا عقلًا].

يقول العلَّامة الآلوسيّ في تفسيره (روح المعاني) عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾: (أي: دين الإسلام الذي هو توحيد الله وطاعته، والإيمان بكتبه ورسله وبيوم الجزاء وسائر ما يكون العبد به مؤمنًا، والمراد بإقامته [تثبيت] أركانه وحفظه من أن يقع فيه زيغ، والمواظبة عليه)، ج٧ ص٥١٣.

وجاء بعد الشَّيخ وليّ الله الدَّهلويّ، حفيده العلَّامة محمَّد بن

إسماعيل بن عبد الغنيِّ بن وليِّ الله، فوضع في هذا [الأمر] كتابًا مستقلًّا باسم (منصب الإمامة) بالفارسية وهو كتاب فريد من بعض النواحي في المكتبة الإسلاميَّة العالميَّة، وينقطع نظيره في قوَّة استدلاله وعرضه، وإشاراته الدَّقيقة ولفتاته البارعة.

إقامة الدِّين مقرونة بالحكمة والفقه الأوَّل:

هذا [الأمر] ـ أعني محاولة تمكين الإسلام وجعله قوَّة حاكمة، لها الأمر والنَّهي من [أمور] (إقامة الدِّين) ـ ليس قالبًا حديديًّا لا نعومة فيه ولا مرونة في أي حال من الأحوال، فالذين نثق بإخلاصهم ورسوخهم في العلم وتفقُّههم في الدِّين، وتشهد لهم بذلك صفحات ناصعة في التَّاريخ ودلائل وشواهد لامعة في ذاكرة الأمة، ونعلم أنَّهم لم يكونوا من أهل (الرُّخصة)، بل كانوا من رجال (العزيمة) فلا بدَّ أن نعترف بأنَّهم لم يتَّخذوا من وسائل هذا العمل العظيم ومناهج تحقيقه، إلَّا ما كانوا يرونه منسجمًا مع الأوضاع الَّتي كانوا يعيشونها، ولم يألوا جهدًا فيما كانوا يستطيعونه، لأنَّ المقصود هو [صلاح النية وصلاح العمل]، والبناء لا الهدم.

وإنه لا يسوغ لعاقل أن يلوم هؤلاء المصلحين المجاهدين [لأنهم وقفوا حسب وسعهم] موقف الإصلاح والنُّصح، والتَّفهيم والإيضاح، دون المعارضة الكلِّيَّة، واستخدموا مبدأ (الإمالة) دون (الإزالة)، وكيف يجوز لنا أن نرميهم بالإهمال الكلِّيِّ في القيام بهذه الشُّعبة من شعب (إقامة الدِّين) وباقتراف (التَّعاون على الإثم والعدوان).

ولا يجوز لنا أن نتَّهمهم بالتَّقصير في أداء هذا الواجب،

لو ركَّزوا عنايتهم، وما أوتوا من المواهب العلميَّة والخطابيَّة والكتابيَّة، وما يتمتَّعون به من المؤهِّلات الجبلّية والقوَّة الإيمانيَّة، على تحويل اتِّجاه المجتمع من الجاهليَّة إلى الإسلام، ومن عبادة [المخلوق] إلى عبادة الخالق وحده، ومن حال العصيان والطُّغيان، إلى الطَّاعة لله والانقياد له، حيث أنَّ المجتمع الإسلاميَّ الفاضل الأصيل هو التُّربة المعبَّدة الصَّلبة الَّتي تتحمل أثقل عبء، وأضخم بناء، وتقبل القيادة الصالحة، وبجانب ذلك ظلُّوا على اتِّصال دائم بمركز القيادة والإدارة، وبلاط الحكومة، وقدَّموا إلى رجال الحكومة [أحكامًا شرعيَّة] مدوَّنة، لكي يأخذوا بها في النِّظام الماليِّ والقضائيِّ والإداريِّ، وسخَّروا الحكَّام المعاصرين بقوَّة أخلاقهم وإيمانهم وإخلاصهم ونصحهم، فمنعوهم أحيانًا كثيرة عن الخطوات التي تلحق الضَّرر بالإسلام والمسلمين، وأخضعوهم بهذه القوَّة الغلَّابة [لتنفيذ الأحكام] الشرعية والحدود الإلهيَّة، ووقفوا بهم في وجه القوى المحاربة للإسلام، فكانوا سببًا مباشرًا في [نشر ونصر الكتاب والسُّنة والفقه الأوّل في الدين]، ووفَّروا للحكومة رجالًا أمناء أوفياء أكفاء ربَّوهم في أحضانهم أعوامًا طوالًا، وكانوا واسطة في تحوُّل زمام الحكومة والقيادة من الملحدين إلى المتديِّنين ومن المحاربين للإسلام إلى المحافظين على الإسلام، ومن الماحين للدِّين إلى الحامين للدِّين، فلا بدَّ أن نعترف لهم بالفضل، ونعتبرهم حاملي لواء السَّعي في سبيل إقامة الدِّين، وجنود الإصلاح والإحياء والتَّجديد الأوفياء، ولا يحقُّ لنا أن نسقطهم من الحساب، ونخرجهم من القائمة، ونرميهم بالتَّقصير في المسؤوليَّة، بمجرَّد أنهم لم ينجحوا في تأسيس حكومة إلهيَّة مثالية [فالنتائج بيد الله وحده، وأكثر الرسل لم يتبعهم إلا القليل أو لم يتبعهم أحد].

كلمة لا بد منها

هذه السُّطور الَّتي تقدَّمت بها إلى القرَّاء الكرام في الصفحات الماضية، والَّتي هي دراسات مبدئيَّة فيما يتَّصل [بالفَهم المبْتَدَع] للحقائق والمبادئ [الشرعيَّة]، ربَّما [يضيق] بها أولئك الَّذين لا يفرقون بين الخلاف المبدئيِّ والخصومة الشَّخصيَّة، ويرون في أدنى خلاف لوجهة نظر داعية أو عامل في مجال من المجالات الإسلاميَّة، أو قائد لحركة أو دعوة (تفيد فائدة ما سياسيَّة أو اجتماعيَّة أو دينيَّة) إضرارًا بمصالح الإسلام، وتشتيتًا لشمل المسلمين، وإني لا أنكر أنَّه ربَّما استخدم الخلاف في الرَّأي والمؤاخذة، وأساليب الإنكار والرَّد، لتحقيق أغراض سياسيَّة أو حزبيَّة، ولكنَّ الحقيقة أنَّ هذا الخلاف في الرَّأي والنَّظر [مردودًا إلى الدليل من الكتاب والسنة] لم يكن طريق السَّلف فحسب، بل كان في الوقت ذاته سببًا كبيرًا في حفظ الدِّين من التَّحريف الجزئي، وعصمة الأمَّة من الانحراف الكلِّي، [وتنفيذ أمر الله ورسوله].

أمَّا الأئمَّة المجتهدون فهم فوق أن أضرب بهم مثلًا في [قبول النقد والنّصح]، لأنَّهم كانوا مجرَّدين من كل شوائب الأنانية والإعجاب بالنَّفس، والحقد [والغرور]، وفتنة (المعاصرة)، [والَّذين جاءوا من بعدهم] في الزَّمان [والمكان، واتبعوهم في] العلم [والعمل فإنهم] كذلك لم يحتملوا هذا الخلاف في الرَّأي ووجهة

النَّظر فحسب، بل تلقَّوه بالتَّرحاب، وشكروا لناقديهم ومخالفيهم على [نقدهم ونصحهم]، وقد قبله أتباعهم وأنصارهم أيضًا بغاية من سماحة النَّفس وانشراح الصَّدر، وتناولوه بالدِّراسة في جد وإخلاص، ولم يرموهم بالعداء الشَّخصيِّ أو نيل الشُّهرة والجاه، أو الإضرار بمصالح الإسلام، وهناك أمثلة رائعة من نقد العلماء للعلماء، والعظماء للعظماء، يتشرَّف به المسلمون على مدار التَّاريخ، ويتجمَّل به تاريخ المسلمين عبر القرون والأجيال، ويبرهن به المؤرِّخ المنصف على شجاعة العلماء وأنَّهم ما زالوا يؤدون الشهادة لله، لا تأخذهم في ذلك لومة لائم، ويؤثرون مصلحة الدِّين على كل مصلحة.

إنَّ الإخلاص الصَّادق، وفضيلة نشدان الحقِّ، وحبِّ صيانة الدِّين عن كلِّ شائبة من التَّحريف، وإعلاء كلمة الله في الأرض، والإيمان بأنَّ كلًّا يؤخذ من قوله ويردُّ، إلّا النَّبيّ المعصوم ﷺ، كلُّ ذلك سيجعل الإنسان لا يضيق بهذه الملاحظات والتنقيحات، بل سيستقبلها بصدر رحب وقلب منشرح، لأنه يراها تعينه على فهم الإسلام وتفهيمه وصيانته، مما يدلُّ على أنَّ الغرض هو اتِّباع الحق ورضا الله، لا تضخيم الشَّخصية أو تنميق الكلام، أو تحبير الحديث.

والله يقول الحقَّ وهو يهدي السَّبيل.

« تميَّز الأستاذ الندوي رحمه الله في هذا الكتاب بالتركيز على تفنيد دعوى المودودي وتلميذه سيد قطب بأنَّ أركان الإسلام العمليَّة (الصَّلاة والزَّكاة والصَّوم والحجّ)؛ وسائل لتحقيق الغاية التي بعث الله من أجلها الأنبياء، وهي: تأسيس الحضارة والمدنيّة في الأرض وبناء المدنيّة الإنسانية على أُسُس من الخير والفلاح. وأن العبادة ليست وظيفة حياة، وأن العمل الدّنيوي عبادة من عبادات الإسلام. هذه الدَّعوى الخاطئة الخطيرة هي من أكبر الدَّوافع لتأليف الأستاذ النَّدْويّ رحمه الله هذا الكتاب: «التفسير السياسي للإسلام»، وأكبر دافع للأستاذ عبد الحق التركمانيّ لإعادة نشره - بعد فَقْدِه -، وأكبر دافع لمهذِّبه لتهذيبه وطبعه وتوزيعه، بعد أنْ رأى الثلاثةُ سوءَ عاقبةِ هذا الانحراف الفكريّ الموصوف بالإسلاميّ »

سعد الحصيِّن
رحمه الله

مركز دراسات تفسير الإسلام
CENTRE FOR STUDIES IN THE
INTERPRETATION OF ISLAM
1 Kamloops Crescent, Leicester, LE1 2HX, United Kingdom
www.csiislam.org